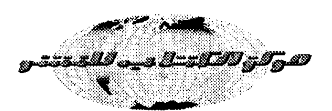


مركز الكتاب للنشر

الطبعة الثانية
٢٠٠٣م



مصر الجديدة: ٢١ شارع الخليفة المأمون - القاهرة
تليفون: ٢٩٠٨٢٠٣ - ٢٩٠٦٢٥٠ - فاكس: ٢٩٠٦٢٥٠

مدينة نصر: ٧١ شارع ابن النفيس- المنطقة السادسة - ت: ٢٧٢٣٣٩٨

http://www.top25books.net/bookcp.asp
E-mail:bookcp@menanet.net

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (١٩٠) وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ ﴾

[سورة البقرة ١٩٠ : ١٩١]





كان عـمر بن الخطاب من ألمع الشـخصيـات الإسلامـية فى كل العصور . . لما لشخصيـته من المهابة والقوة والتواضع ، ولما تركه من تراث خالـد على مستـوى سلوكيـاته الشخـصيـة أو على مسـتوى الإنجازات الهائلة ، وتدعيم الدولة الإسلامية التى تحققت على يديه ، وإقامـة كيـان عالمى لهـا ، ومع ذلك ظل عمر بن الخـطاب الإنسان الذى يمشى على الأرض كواحـد من الناس العاديين . . لا استهـتار بأحـد . . ولا غـرور ولا صلف . . منتـهى آماله أن يرى الجـمـيع يتمتعون بالعـدل ، ويُظل الجميع راية الإسلام . . لا يطغى أحد على أحد ، ولا يستهين إنسان بآخر . . والكل تحت ظلال الإسلام يعمل من أجل رفعة دينه ، وانتشاره فى كل أرض .

إنه قامة عالية جدا فى تاريخ الإسلام كقدوة ومثل وبطل شجاع .

وما أكثـر الصور الرائعة التى تطالعنا ونحن ندرس تاريـخ حياته ومـواقـفه الـتى لايمكن أن تنسـاها ذاكـرة الزمـان إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، كان ينتفض عندمـا يشعر أنه ظلم أحدا ، وكان يردد وهو يعاتب نفسه ، وخشيته من حساب الله :

- ما تقول لربك غدا .

هل يمكن أن نرى حاكما فى منزلة عمر بن الخطاب. . دان له الفرس والروم. . وأصبح أقوى حاكم فى العالم المعروف فى زمنه. . تراه يهرول وراء بعير فر من إبل الصدقة، وعندما يلقاه علىّ ابن أبى طالب ويسأله:

- إلى أين يا أمير المؤمنين؟

- بعير فر من إبل الصدقة أطلبه.

ويندهش علىّ بن أبى طالب ويقول له:

- لقد أتعبت الذين سيجيئون بعدك.

ويرد الفاروق عمر:

- والذى بعث محمدا بالحق، لو أن عنزا ذهبت بشاطئ الفرات لأُخذ بها عمر يوم القيامة!

وما أعظم هذا الحوار الذى دار بينه وبين أبى موسى الأشعرى، يقول له ابن الخطاب:

- يا أبا موسى، هل يسرك أن إسلامنا مع رسول الله وهجرتنا معه، وشهادتنا، وعملنا كله يرد علينا، لقاء أن ننجو كفافا، لا لنا ولا علينا؟

فيقول له أبو موسى الاشعرى:

- لا والله ياعمر، فقد جاهدنا، وصلينا، وصمنا، وعملنا خيرا كثيرا، وأسلم على أيدينا خلق كثير وإنا لنرجو ثواب ذلك.

يستمع إليه الخليفة العظيم، وتنحدر على وجنتيه دموع كثيرة ويقول:

- أما أنا، فوالذى نفس عمر بيده لوددت أن يرد لى، ثم أنجو كفافا، رأسا برأس.

إن عمر العظيم الذى بشره رسول الله بالجنة، يخاف الله كل هذا الخوف.. ورغم أنه نشر كل قيم الإسلام النبيلة، ورغم أنه كان تجسيدا حيا لرسالة الإسلام، ورغم أنه كان يقتدى بسلوكيات أعظم رسل الله، إلا أنه يرى نفسه لايوفى حقه لله، ويخشى عقابه وهو الذى ملأ الأرض عدلا وحسنا، وآمن الناس فى عهده من كل خوف.. وأخذ كل ذى حق حقه، وحرم نفسه أن يعيش كأبسط البسطاء من رعيته، بل قسى على نفسه ليعيش أقل مما يعيش البسطاء.. وهو القائل تعبيراً عن ذلك:

- والذى نفسى بيده، لولا أن تنقص حسناتى لشاركتكم فى لين عيشكم.. ولو شئت لكنت أطيبكم طعاما، وأرفهكم عيشا، ولنحن أعلم بطيب الطعام من كثير من آكليه، ولكننا ندعه ليوم تذهل فيه كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذى حمل حملها.. وانى لاستبقى طيباً لأن سمعت الله تعالى يقول عن أقوام: ﴿ **أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا** ﴾ [الأحقاف: ٢٠]

و.. ما أعظم عمر..

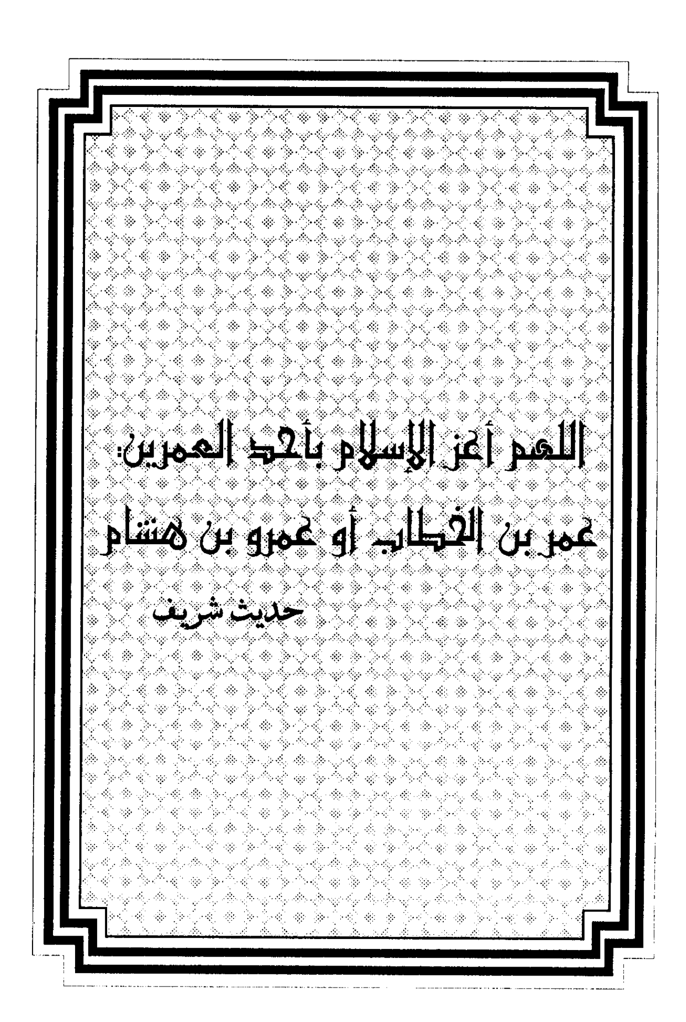
و . . ما أعظم مواقفه .

وهو مع كل هذه العظمة . . وكل تمسكه بالكتاب والسنة . . كان يخشى على نفسه ألا يكون قد عـدل بين الناس كما ينبغى أن يكون العدل وكان كلما انتابته هذه الخشية يقول :

- ياليت أم عمر لم تلد عمر .

أى عظمة تلك التى كان عليها الفاروق عمر بن الخطاب .

مأمون غريب


اللهم أعز الإسلام بأحد العمرين:
عمر بن الخطاب أو عمرو بن هشام
حديث شريف



إسلام عمر

ما أكثر ما قرأت عن الخليفة العادل عمر بن الخطاب . .

وما أكثر الساعات التى قضيتها بين الكتب التى تتحدث عن سيرة حياته . . قبل الإسلام . . وبعد الإسلام . . إلى أن انتقل إلى جوار الله . . تاركا هذا الأثر الخالد فى التاريخ الإسلامى كله عبر السنين .

وكثيرا ما كنت أترك هذه الكتب جانبا . . وأحاول أن أطوف بخيالى هذه الأيام التى عاشها عمر بن الخطاب . . أطوف بخيالى طفولته . . وشبابه . . وكهولته وشيخوخته .

أطوف معه رحلة العمر . .

وأترك لخيالى العنان ليرى على ضوء هذه القراءات المتعددة عن هذا الإنسان العظيم أن يقرب الواقع . . وأن يرسم لى صورة واقعية . . بعيدة عن شطط الخيال . . عن هذا الإنسان الذى لعب هذا الدور التاريخى الباهر . . وأن يحقق بالعقيدة التى آمن بها . . كل ما حققه من إنجازات بالغة الروعة . . بالغة الأثر . . وأن يكون هو نفسه خير قدوة وخير مثال .

لقد نشأ عمر فى بيت والده الخطاب . . وعرف فى طفولته معنى التقشف لأن والده لم يكن ثريا من أثرياء مكة .

كما أنه شاهد أيضا كيف اضطهد والده عمه زيد بن نفيل لأنه كان يكره أصنام مكة . . فعافها . . وابتعد عن عبادتها . . ودعا إلى المسيحية . .

ولكن لأنه لم يكن صاحب رسالة للناس . . فقد هرب بدينه . . وفر من مكة بسبب من اضطهاد أخيه الخطاب .

وفى شبابه . . اشتغل بالتجارة . . وكان يحب الخمر . . وعاقرها . . وتمضى الأيام . .

وإذا به يستمع عجبًا . .

أن حدثا رهيبا يهز مكة من الأعماق . . حدثا هائلا . . زلزل كل شىء فى القرية الهادئة الآمنة . . التى عاشت سنوات طويلة . . مشغولة بتجارتها إلى الشام وإلى اليمن . . مشغولة بلهوها وعبثها . . تحت وطأة عادات وتقاليد لاتتغير . .

فالأغنياء يزدادون غنى . .

والفقراء يزدادون فقرا . .

والربا . . ووأد البنات عند البعض خوف الفقر عادة لاتلفت نظر أحد . . والنعرات القبلية . . والتفاخر بالأحساب والأنساب عادة تجرى مجرى الدم فى العروق .

وكان كل شىء يجرى فى هذه القرية عاديا . . تعوده الناس وألفوه . . ورضوا بهذه الحياة . . وعاشوا تحت أسوار هذه التقاليد

حياة رتيبة متكررة . . إنهم يشربون الخمر . . ويتردد بعضهم على صاحبات الرايات الحمر . . وهن البغايا اللائى يبعن أجسادهن لمن يريد المتعة الحرام . . وهم مع ذلك يرون فى الكعبة ملاذا مقدسا . . يطوفون بها . . ولكنهم يدنسون جلالها بتلك الأصنام التى امتلأ بها بيت الله الحرام . . الذى أقام قواعده إبراهيم وإسماعيل . . فإذا بهم وقد طال العهد بدعوة الخليل إبراهيم . . قد تناسوا رحيق السماء . . تناسوا الإيمان بالله الواحد الأحد . خالق الأرض والسموات . . وما بينهما . . رب الكون العظيم . . نسوا الخالق العظيم الذى نادى بعبادته إبراهيم وابنه إسماعيل . . ليعبدوا أصناما صماء بكماء عمياء . . لاتنفع ولا تضر . . من صنع أيديهم هم . . ينحتونها . . ويعبدونها . . !

إنهم هانئون بهذه الحياة . . أو يخدعون أنفسهم بالرضا عن هذا الواقع الذى يعيشونه . . غير أنه بجانب الرذائل التى تمتلىء بها الحياة . . هناك بعض القيم التى تمثلت فى نجدة المظلوم والوقوف بجانبه . . وكان ثمرة ذلك حلف الفضول الذى قال عنه النبى عليه الصلاة والسلام :

« رأيت فى دار ابن جدعان حلفا . . لو دعيت إليه فى الإسلام لأجبت» .

وكانت هناك بعض العروق العربية كبنى هاشم الذين وكل إليهم أمر السقاية والرفادة . . وهذا شرف كانت تتطاول إليه الأعناق .

وهناك من ارتفعت قامته بالثراء والحياة كبنى أمية التى كانت تنافس بنى هاشم الجاه.

فى ظل هذه الحياة عاش عمر بن الخطاب.

صبى عاش طفولة قاسية فى ظل والد يجنح به الغضب إلى مداه وشاب قوى الشكيمة.. أورثته طفولته حدة فى الطبع.. وأورثته قوته البدنية شجاعة القلب.. فهو طويل القامة.. كث اللحية.. أصلع الرأس.. يرى ماشيا كأنه راكب.. وكان فارسا شجاعا.. يروض الخيول بغير ركاب.. مع ذلك فقد كان مرهف الحس.. يحب الشعر.. ويطرب له.. ويعجبه فيه حسن المعانى.. ومع ما انطوت عليه نفسه من شجاعة واندفاع.. كان قلبه رقيقا للضعيف.. يندفع ولكنه يثوب الى رشده عندما يوقن من الحقيقة.. وأنه اندفع بلا مبرر.

كان هذا هو عمر بن الخطاب.. الذى سمع ذات يوم بهذا الحدث الهائل الذى زلزل مجتمع مكة كله.. وأصبح حديث الناس جميعا.. الأغنياء منهم والفقراء.. الأقوياء منهم والضعفاء.. العقلاء منهم والبلهاء.

لم يعد هناك حديث إلا عن هذا الحدث الخطير الذى أطار النوم من العيون..

وكان هذا الحدث الخطير الذى استمع إليه ابن الخطاب وطار له

لبه . . هو تلك الدعوة التى أخـذ ينادى بها محمد بن عـبدالله عليه الصلاة والسلام . .

ولاشك أن ابن الخطاب قلب الأمر على جميع وجوهه . . فهو لم يعرف عن محمد إلا الطهر والصفاء والنقاء . .

لاشيء يشوب شخصيته . .

ولاشيء من الرذائل يمكن أن يلتصق به .

فلا أحد يعرف عنه إلا الطهر والصفاء والنقاء .

ولا أحد يعرف عنه سوى أنه «الأمين» .

والجميع يعـرفون عنه بُعده عن مجـتمع مكة بعاداتهـا المتهرئة . . وتقاليدها السخيفة . .

لم يره أحد يسجد لصنم قط . .

ولم يره أحد يغشى نوادى مكة وأماكن اللهو فيها . .

ولكنه منذ طفولته وهو يحـيا حياة مستقـيمة . . ويأكل من عرق يده . . بأن يرعى الغنم . . حـتى إذا بلغ الخـامـسة والعـشـرين من عمره . . تاجر فى مال السيدة خديجة بنت خويلد فى الشام . . ورجع لها بربح عـظيم . . واختارته هى زوجـا لها . . بعـد أن رفضت من تقدم لهـا من سادة مكة وأشرافـها . . لا أحد يسـتطيع أن يزعم عن شخصية محمد ما ينقصها . .

ولكن ما هذه الدعوة التى يدعو إليها؟

ما هو الإسلام؟

لابد أن أسئلة كثيرة حائرة دارت فى ذهن ابن الخطاب، وهو يشاهد رجالا من أمثال أبى بكر وعثمان بن عفان، ، وحمزة بن عبدالمطلب، وغيرهم من الرجال المشهود لهم بالشجاعة والذكاء . . يؤمنون بهذا الدين الجديد!

ولابد أنه تساءل فيما بينه وبين نفسه عن هذا السر الذى يكمن فى هذه العقيدة التى جعلت أصحابها يستعذبون العذاب، ولايرتدون عن عقيدتهم . .

لابد من أن أسئلة كثيرة حائرة دارت فى ذهن ابن الخطاب حول هذا الدين الجديد الذى أحدث فى مجتمع مكة هذا الزلزال الرهيب، وكان لابد أن يندفع بشبابه . . وقوته . . واندفاعه لعداء هذا الدين الجديد . . وكان هذا نابعا من (غضبته العمرية) التى عرفت عنه إلى أن يميز بين الحق والصواب . . فطالما كان هو نفسه سوط عذاب على المؤمنين . .

ولكنه يرى أن الدعوة سائرة فى طريقها . .

وأن صاحب الدعوة أقوى عزيمة وأشد إيمانا . . وأروع يقينا . . بطريقة لاتخطر على بال . .

وأن الدعوة تزداد كل يوم قوة . . ويزداد معتنقوها يوما بعد يوم . .

إن أصحاب محمد يزيدهم (العذاب تمسكا) بعقيدتهم . . لاشىء يثنيهم عن طريقهم . . وصـاحب الدعوة نفسه له من قوة الشـخصية والجلال . . والمهـابة . . وله من قوة الإرادة وتحـمل الصعـاب . . ما يجعل أصـحابه يلتفون حـوله . . ويسترخـصون حياتهم فى سـبيل الإسلام .

لابد وأنه فـكر فى هذا كلـه . . رغم عـداوته للإسـلام ونبى الإسلام . . ولكن هذه العـداوة لم تكن نابعة من عـقله . . ولا حتى من قلبه . . ولكنها عـداوة نابعة من رواسب الحياة الاجتمـاعية التى عاشها . . فهو لايمكن أن ينخلع عما عاشه وألفه بسهولة . .

اندفاعه دفعه الى البطش بالمؤمنين بالدين الجديد . .

وعقله كـان يدفعه الى التفكيـر . . فكلما خلا الى نفـسه فكر فى هذا الدين الجديد . . ولماذا يتـمسك أصحابه به كل هذا التـمسك؟ . وقد روى عنه قوله :

- كنت للإسلام مباعدا، وكنت صاحب خمر فى الجاهلية أحبها وأشربها وكان لنـا مجلس يجتمع فيه رجال مـن قريش . . فخرجت أريد جلسائى أولئك فلم أجد منهم أحدا . .

فقلت : لو جئت فلانا الخمار . . وخرجت فجئته فلم أجده . .

قلت : لو أنى جئت الـكعبة فطفت بهـا سبعـا أو سبعين فـجئت المسجد أريد أن أطوف بالكعبـة . . فإذا برسول الله ﷺ قائم يصلى، وكان إذا صلى اسـتقـبل الشام، وجـعل الكعبة بينـه وبين الشام . .

واتخذ مكانه بين الركنين: الركن الأسود والركن اليماني: فقلت حين رأيته: والله لو أني استمعت إلى محمد الليلة حتى أسمع ما يقوله، وقام بنفسي أنني لو دنوت أسمع منه لأروعته، فجئت من قبل الحجر فدخلت تحت ثيابها ما بيني وبينه إلا ثياب الكعبة.. فلما سمعت القرآن رق له قلبي ودخلت الإسلام.

فعمر لم يكن إسلامه وليد الصدفة كما ادعى بعض المؤرخين.. ولكنه فكر كثيرا في هذا الأمر.. حتى رق للإسلام..

وعندما حاول أن يذهب لقتل النبي عليه الصلاة والسلام.. وسار في الطريق والغضب واضح على وجه ممسكا سيفا.. حين رآه نعيم عبدالله.. وسأله نعيم:

- أين تريد ياعمر؟

- أريد محمدا.. هذا الصابئ الذي فرق أمر قريش، وسفه أحلامها وعاب دينها.. وسب آلهتنا فأقتله..

فقال له نعيم:

- والله لقد غرتك نفسك ياعمر.. أترى بني عبدمناف تاركيك تمشي على الأرض وقد قتلت محمدا؟ أفلا ترجع إلى أهلك وبيتك فتقيم أمرهم؟

قال: وأين أهل بيتي؟

قال: ختنك وابن عـمك سعيد بن زيد بن عمرو وأختك فاطمة بنت الخطاب، فقد والله أسلما وتابعا محمد على دينه.. فعليك بهما.

ويذهب عمر إلى دار أخته.. ويسمع صوت خباب وهو يقرأ على فاطمة وزوجها القرآن.. ويطرق عمر الباب.. ويعرفون أنه عمر.. فتخبئ فاطمة أوراق القرآن تحت فخذيها.. ويفتح زوجها الباب لعمر، ويختفي خباب.. ويسأل عمر عما سمعه.. ويحاول البطش بسعيد ويلطمه على وجهه.. وتقوم الزوجة المخلصة لتدافع عن زوجها.. ويرى في يديها آيات القرآن.. ويطلبا منها، ولكنها ترفض أن تعطيها له.. ويصر عمر.. وتصر هي ألا يقرأها إلا بعد أن يتطهر لأنه مشرك.. وتخبره أنها أسلمت مع زوجها. ثم أخذ يقرأ بعض آيات من أول سورة طه..

﴿طه ﴿١﴾ مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ ﴿٢﴾ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴿٣﴾ تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَى ﴿٤﴾ الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ ﴿٥﴾ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَىٰ ﴿٦﴾ وَإِن تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ﴿٧﴾ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ [طه ١-٨].

قرأ هذ الآيات حتى قوله تعالى: ﴿إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ [طه: ١٤].

واستحسن عمر هذا الكلام . . ورق قلبه . . وخشعت أعماقه وهو يستحسن ما يقرأ . . ويشعر فى نفسه بالرهبة . . ثم هفت نفسه للإسلام . . كما رق وهو يستمع للنبى وهو يصلى . . عند الكعبة . .

لقد دعا النبى ﷺ ربه . . أن يعز الإسلام بأحد العمرين . . عمر ابن الخطاب أو عمر بن هشام . . واستجاب الله دعاء نبيه عليه الصلاة والسلام .

وها هو عمر . . يشعر بجمال الإيمان يغمر قلبه . . ويشعر بالسعادة تملأ أعماقه . . وتهفو لرؤية رسول الله ﷺ . . لا ليذهب إليه شاهرا سيفه يريد قتله هذه المرة . . ولكنه سوف يشهر سيفه بجانب رسول الله . . لا ضد رسول الله . . وسوف يعز الله به الإسلام . . وسوف يكون قريبا من قلب رسول الله . .

كم كانت الفرحة تملأ قلب عمر . . وآيات الله تهز أعماقه فيفيق من غيبوبة الشرك والجاهلية . .

وكم كانت فرحة خباب الذى جاء يعلم فاطمة بنت الخطاب وزوجها القرآن عندما سمع استحسان عمر للقرآن . . فيخرج من مخبئه . . ويخبره بدعاء الرسول . .

ويسأل عمر خبابا عن مكان النبى ﷺ . . ويقول له خباب أنه فى دار عند الصفا مع نفر من أصحابه، ويذهب عمر . . ويطرق الباب . . ومن ثقب الباب يقوم رجل من أصحاب النبى يرى عمر متوشحا سيفه . . فيرجع يخبر النبى عن عمر وسيفه .

ويقول حمزة بن عبدالمطلب: تأذن له . . فإن كان يريد خيرا بذلناه وإن كان يريد شرا قتلناه بسيفه .

ويفتح لابن الخطاب الباب، ويمسك النبى ﷺ بمجمع ثيابه ويقول له: «ما جاء بك يا ابن الخطاب؟ فوالله ما أرى أن تنتهى حتى ينزل الله بك قارعة!» .

ولك أن تتخيل موقف عمر . .

عمر بكل شموخه فى الجاهلية . . وبكل اندفاعه . . جاء إلى النبى ليعلن إسلامه . . وقد تأخر إسلامه قليلا . . وآذى المسلمين . . وها هو ذا أمام محمد الأمين . . سيد البشر . . يؤمن فى أعماقه وقد غمر قلبه الإيمان . . لأنه لم يكن إيمانا وليد الصدفة . . ليس إيمانا جاء كما قال بعض مؤرخى السيرة نتيجة هذه الصدفة التى صادفته عندما أراد قتل النبى . . فشاهده من قال له أن أختك قد تبعت دين محمد . . وهناك قرأ بعض آيات القرآن الكريم . . فأرجعته الى رشده . . ولكن نفس ابن الخطاب كانت تتوق إلى معرفة الحقيقة منذ زمن . . وهذا ما يدلنا عليه حديثه عند سماعه للنبى وهو يقرأ القرآن فى الصلاة عند الكعبة فرق قلبه له . . كما يدلنا على ذلك خشوعه عندما سمعه بعد ذلك فى بيت أخته وتأمل ما فيه من معان جليلة . . وألفاظ رائعة . . لم يعرفها من قبل وهو العارف لأوزان الشعر . . المحب للفصاحة . .

لقد وجد فى القرآن إنه كلام يعلو فوق كلام البشر . . إنه كلام

معجز . . فهو كلام الله . . وليس بكلام البشر . . ورسالة محمد هى الحق . . لأن مـحمـدا لايمكنه أن يأتى بمـثل هذا الكلام من عنده . . فيذهب إلى النبى ليعلن إسلامه . . وهاهو النبى يقابله وقد جذبه هذه الجذبة القوية من ملابسه . . ويؤنبه عن موقفه من الإسلام . . وإيذائه للمسلمين!

لاشك أن عمر شعر فى أعماقه بتأنيب الضمير لموقفه من الإسلام ونبى الإسلام . .

لأن ما نعـرفه عن عـمر . . أنه كان سـريع الرجوع إلى نفـسه . . يؤنبهـا أقسى ما يمكن أن يؤنب الإنسـان نفسه إذا مـا وجد نفسـه قد حادت عن طريق الصواب . .

ويحاسب نفسه أشد الحساب عندما يشعر بالندم على شىء اعتقد أنه بعيد عن الصواب . . ولقد كان موقفه فى أول الدعوة إلى الإسلام موقفا عنيفا من الإسـلام . . حاربه بلا مبرر . . إلا بالاندفاع . . وإلا بروح العادات والتـقاليد الباليـة التى عششت فى العـقل الجاهلى . . وها هو ذا يعود إلى الحق . . وها هو أمام النبى بجلال شـخصيته . . ومهابته . . ووقاره . . وهو يجذبه من ثيـابه . . يؤنبه عما اقترفت يداه فإذا بعمر بكل الحياء يجيب الرسول :

- يا رسول الله . . جئتك لأومن بالله وبرسوله وبما جاء من عند الله!

وشعـر المسلمون الجـالسون فى دار الأرقم بن أبى الأرقم بـالقوة

تسرى فى عـروقهم . . بإسلام عـمر . . لقد أعـز به الله الإسلام . . وسوف يزدادون به اليـوم قوة . . وسـوف يصبح سيـفا من سـيوف رسول الله . . وسوف تأخذ الدعوة به مسارا جديدا .

إن عمر يسأل رسول الله : ألسنا على حق؟

ويجيبه النبى عليه الصلاة والسلاة :

- بلى . .

قال عمر : فلم الاختفاء ! ! والذى بعثك بالحق لنخرجن . .

هذا هو عمر رجل المواقف . . إنه لايعلن إسلامه أمام الرسول . . ويتخـفى ليأمن بطش المشركين . . ولكنه يأبى إلا أن تصـبح الدعوة جهاراً نهاراً . . أنها دعـوة الحق . . والحق لابد أن ينتصر على الباطل مهما كانت صولة هذا الباطل . .

لابد أن تكون الدعوة أمام أعين مكة . . وفى وضح النهار . .

ولابد للمسلمين أن تظهر قوتهم . .

لقد هاجر بعض المسلمين إلى الحبشة . .

وعمر يتذكر ذلك اليوم وهو يشاهد بعض المسلمين الذين هاجروا من مكة إلى الحـبشـة . . تاركين الأرض . . والأحبـاب . . إلى بلاد غـريبة . . هاربين إلى بلاد يعلـم الله وحده . . كـيف سيكون فـيهـا مستقبلهم مع الأيام . . إنه يتذكـر هذا اليوم . . ويتذكر كيف رق قلبه

لهـؤلاء الذين يتـركون أرضـا عـاشوا عليـهـا وفيـهـا قبـور الآباء والأجداد . . وفيها آمال المستـقبل . . من أجل العقيدة . . لقد تعجب عمر يومها . . وهو يشاهد أم عبـدالله بنت حنتمة . . المهاجرة بدينها إلى الحبـشة إنه يعلم أنها سـوف تترك بلادها فـيحاول أن يثنيـها عن عزمهـا لتظل فى مكة . . فتأبى . . فـيدعو الله أن يوفقـها وأن تعود بالسلامة!!

عمـر هذا عرف معنى الإسـلام . . وحلاوة الإيمان . . وطلب من رسـول الله الخـروج . . ووافق الرســول . . وخـرج المسلمـون فى صفين . . على رأس أحـدهم عمر . . وعلى رأس الآخر الحـمزة بن عـبدالمطلب . . وتوجـها إلى البـيت الحـرام . . ومكة تنظر إلى هذه المفاجأة الجديدة . . وتتهيب أن تواجه هذا الموقف الجديد . . ومن هذا اليـوم أطلق عليه النبـى ﷺ لقب «الفاروق» . . لأنه فـرق بين الحق والباطل . .

وعمر الذى أعلن إسلامه علانية . .

كان عليه أن يواجه مجتمع مكة بعاداته وتقاليده المتهرئة . .

فمثله لايخشى فى الله لومة لائم . .

وإذا كان قد آذى المسلمين من قبل؟

فقـد كان لزاما عليـه أن يكون مؤثرا فى الدعـوة للإسلام . . وأن

يدعو الناس للإسلام . . بل إنه كان حريصا كل الحرص أن يعرف الجميع بإسلامه فى أقرب وقت . .

لقد ذهب بنفسه ليقول هذا الخبر لرجل اشتهر بين الناس بنقل الكلام وهو جميل بن عمر الجمحى . . الذى سرعان ما نشر الخبر فى أنحاء مكة . . وسار عمر وراءه والرجل يصيح :

- لقد صبأ عمر . .

وكان عمر يردد بصوته الجهورى :

- بل كذب : ولكنى أسلمت وشهدت أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله . .

ويتجمع حوله المشركون يريدون أن يذيقوه نفس الكأس الذى أذاقوا به المسلمين . . أن يعذبوه . . وأن يشعروه بأنهم الأقوى . . وأنه لن يفلت منهم أيضا . .

وحاول خاله أن يجبره . . ولكن عمر رفض . .

آثر أن يواجه الجميع . . واقتربوا منه . . وحاولوا النيل منه . . ولكنه كان يختار من بينهم الأقوى . . وينهال عليه ضربا حتى أنه كاد يفقأ عين ـ عتبة بن ربيعة ـ بعد أن أسقطه أرضا . . لأن هذه العين لا ترى النور والحقيقة . . وظل معهم فى صراع لفترة طويلة . . وهو لايستسلم لهم . . بل يختار من يظن فى نفسه القوة . . أو الشرف . . وينهال عليه . . وينهالون عليه . . حتى تعب وتعبوا . . وقال لهم :

- افعلوا ما بدالكم . . فو الله لو كنتم ثلثمائة رجل لتركتموها لنا أو تركناها لكم .

هذا هو عمر العظيم . .

كان إسلامه أيضا عظيما . .

كره الإسلام . . وحقـد عليه . . ثم هداه الله إلى الإيمان . . فدخله بقلبه وعقله . . وكان إيمانه عظيما . . واقترب من النبى ﷺ وقال عنه عليه الصلاة والسلام :

«إن الله جعل الحق على لسان عمر وقلبه»

وكان يقول عنه أيضا :

«إن الله غيور يحب الغيور ، وإن عمر لغيور» .

* * *

يا عبد الرحمن بن عوف لقد لنت للناس حتى خشيت الله في اللين، ثم اشتددت حتى خشيت الله في الشدة، وأيم الله لأنا أشد منهم فرقا وخوفا.. فأين المخرج

عمر بن الخطاب

المواقف العمرية

إن الرجل موقف . .

ومواقف أى إنسان تدل على معدنه . .

والإنسان الذى ليس له مواقف . . إنسان بلا شخصية . . إنسان مائع . . فالإنسان يحاسب على مواقفه . . ويحكم عليه من خلال هذه المواقف . .

وما أكثر مواقف عمر بن الخطاب . . ومن هذه المواقف يمكن أن نقول عنه أنه عظيم بكل المقاييس . .

والذى يعرف مواقف عمر عندما دخل الإسلام . . وجهاده مع النبى ﷺ فى جميع معاركه . . ووقوفه بجانب الصديق فى خلافته القصيرة . . ثم حمله أعباء إمبراطورية ناشئة . . يدعم كيانها . . ويبنى أسسها ويشيد فيها الدعائم ويرسم سياستها . . ويخطط لمستقبلها . . ويسوس أمورها . . يرى عجبا . .

فالإسلام بمبادئه العظيمة . . والرسول صاحب الرسالة بشخصيته وأخلاقه ومثله الرائعة . . صنع مدرسة تخرج فيها قادة حكموا العالم . . وأرسوا دعائم امبراطورية . . وساسوا شعوبا . . وحكموا دولا ذات حضارات عريقة . . وبنوا مجد حضارة شابة غزت القلوب والعقول . . ومدت نور الإسلام إلى مختلف بقاع الدنيا . .

ويمكن أن نتصور شخصية كشخصية عمر . . لو لم تدن بدين الإسلام . .

أغلب الظن . . أنه سوف يعيش معروفا فى فترة حياته . . فى مجتمع مكة فقط . . ثم تسدل الأيام ستار النسيان . . أو أنه سوف يعيش إنسانا له مكانه فى مجتمعه . . فى تلك الفترة القصيرة التى يعيشها . . ثم . . لا أحد من الأجيال التالية . . سوف يسمع أنه كان هناك إنسان يمشى على الأرض اسمه عمر بن الخطاب . . مثله مثل الملايين الذين جاءوا قبله . . ثم تواروا تحت تراب النسيان . . ولكن الإسلام . . جعل منه عمر بن الخطاب . . هذا الإنسان المرموق . .

لقد رفعه الإسلام إلى قمة شاهقة . . فإذا به يصبح من أقرب المقربين إلى النبى ﷺ، يشيره، ويستشيره . . وفى كثير من الأحيان كانت آراؤه يدعمها الوحى . . ثم كان له دوره الخطير فى أيام الرسول . . وفى خلافة الصديق، ثم انعطف بالتاريخ انعطافا خطيرا، لينطلق انطلاقا جبارا وهو يدعم أسس أعظم امبراطورية إسلامية عرفها التاريخ . .

والرجل فى كل أطوار حياته فى الإسلام لم يتغير . .

كان لايخضع لظلم . . ولا يستسلم له . . بل كان يقاومه بكل ما ملكت يداه .

وعاش للعدل وبالعدل فبلغ به قمة لايرنو إليها بشر . .

ووضع أسسا مستنيرة فى الدولة فكان بحق المدعم لهذه الامبراطورية الهائلة التى مهد لها الرسول ﷺ . . وقام من نقطة الانطلاق التى بدأها أبو بكر الصديق . . وبلغت أوجها فى عهد عمر . . ثم أخذت بعد ذلك مسارها لتنشر نور الإسلام فى العهود التالية . .

إن تأمل هذه المواقف التى وقفها الفاروق عمر بن الخطاب . . يجعل الإنسان يقف أمامها كثيرا متأملا عظمة هذا الإنسان . . بل إن هذه المواقف نفسها تفصح عن معدن هذا الإنسان العظيم . . بما لاتستطيع أن تعبر به الكلمات . . عرفنا موقفه يوم دخل الإسلام . . وتحدى مجتمع مكة كله . . وأعلن إسلامه علانية . .

ورأينا كيف يدخل فى معركة وحده مع رجال من قريش وهو يتحداهم بالإيمان . .

وتمضى الأيام . . وإذا بالرسول بوحى من الله يقرر الرحيل من مكة . . والهجرة إلى المدينة . . ليأخذ الاسلام مسارا آخر . . إن النبى بقراره الخطير عن الهجرة إلى المدينة . . سوف يتحول مسار الأحداث . . لأنه سيضع نواة دولة . . وسيواجه مجتمع مكة . وسوف يتصدى للمشركين . . ثم يبشر بالدعوة إلى مختلف أنحاء الجزيرة العربية . . ويرسل رسله الى ملوك العالم وحكامه يطلب منهم الدخول فى الدين الجديد . . إنها عالمية الدعوة . .

لقد أمر الرسول أصحابه بالهجرة . . وهاجروا سرا . .

ولكن عمـر كالعـادة يأبى إلا أن يهاجر فـي وضح النهار . . وأن يعلن للناس هجرته . . أو على حد تعبير الإمام عليّ كرم الله وجهه :

«ما علمت أحـدا من المهاجرين هاجـر إلا مختـفيا إلا عـمر بن الخطاب، فإنه لما هم بالهـجرة تقلد سيفه، وتنكب قـوسه، وانتضى فى يده أسهما، واختصر عنزته (عصاه) ومضى قبل الكعبة والملأ من قريش بفنائها فطاف فى البيت سبـعا متمكنا، ثم أتى فصلى ثم وقف على الخلق واحدة واحدة يقول لهم :

- شاهت الوجوه . . لا يرغم الله إلا هذه المعاطس . . !

من أراد أن يثكل أمـه، أو يوتم ولده، أو يرمل زوجتـه، فليلقنى وراء هذا الوادى ! .

هذا هو عمر . . وهذه هى غضبته فى سبيل إيمانه . .

وهناك موقف آخـر من مواقفه التى لاتنسى . . والتى تظـهر مدى غيرته على الإسلام . .

لنقف أمام هذا المشهد الرائع . . مـشهد النبى ﷺ . . بعد أن رأى منامـا . . وهو فى المديـنة . . رأى أنه يعـتـمـر . . وقص رؤياه على صحـابته فى صلاة الفـجر . . وسلم المسلمون أن النبى ينوى القـيام بزيارة مكة التـى هاجـروا منهـا . . وأنهم سـوف يطوفـون بالبـيت العتيق . . غمرت الفرحة النفوس . . وسار النبى متوجها إلى مكة . . ومعه سبـعمائة مسلم . . ومائتين من الخيـول . . وأمرهم الرسول أن

يسيروا بسيوفهم فقط . . لأنهم لن يذهبوا لمعركة . . ولكنهم سوف يذهبون لبيت الله الحرام . . وبيت الله الحرام مكان يطوفه الجميع . . المشرك وغير المشرك . . فهل يمكن أن يمنع منه المسلمون . . لقد سار المسلمون فى الطريق إلى أم القرى . . إلى مكة . . التى أحبها النبى ﷺ حبا جما . . حتى أنه ورد عنه قوله عندما اضطر إلى الهجرة :

«والله إنك لأحب البلاد إلى نفسى . . ولولا أن قومك أخرجونى منك ما خرجت أبدا» . .

وعلمت قريش بمسيرة النبى . . وأصرت أن تحول بين النبى والعمرة، وكان على رأس الذين توجهوا للتصدى للنبى ﷺ خالد ابن الوليد ووجد المسلمون أنفسهم وجها لوجه أمام جيش خالد . . وعندما أذن بلال لصلاة الظهر . . قام المسلمون فصلوا . . وفكر خالد ابن الوليد . . لماذا لا يستغل فرصة انشغال المسلمين فى صلاتهم وينقض عليهم . . ونزل وحى السماء :

﴿ وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿١٠١﴾ وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِن وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَاحِدَةً وَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن

مطرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰ أَن تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٠٢﴾ ﴾ [النساء: ١٠١-١٠٢]

وفى صلاة العصر.. صلى المسلمون صلاة الخوف.. ثم طلب النبى ﷺ من أصحابه أن يقولوا رأيهم فى الموقف بعد أن اتضح عزم مكة عن منع المسلمين من تأدية العمرة.. لقد طرح النبى ﷺ هذا السؤال:

«أشيروا على أيها الناس.. أتريدون أن نؤم البيت فمن صدنا عنه قاتلناه؟».

كان رد أبو بكر:

- يا رسول الله خرجت عامدا لهذا البيت لاتريد قتل أحد، ولا حربا، فتوجه له، فمن صدنا عنه قاتلناه..

- هنا قال الرسول ﷺ وهو يأسف لموقف قومه الذين أخرجوه من بلده.. وحاربوه.. وهاهم اليوم يقفون ضده حتى لايؤدى العمرة:

«ياويح قريش لقد أكلتهم الحرب، ماذا عليهم لو خلوا بينى وبين سائر العرب.. فإن هم أصابونى كان ذلك الذى أرادوا.. وإن أظهرنى الله عليهم دخلوا فى الإسلام وافرين.. وإن لم يفعلوا قاتلوا وبهم قوة؟ فما تظن قريش؟.. والله لا أزال أجاهد على الذى بعثنى الله به حتى يظهره الله أو تنفرد هذه السالفة».

كلمات بليغة رائعة.. فياضة بالمشاعر النبيلة.. والعزم الذى لايتسرب إليه أى شك فى إتمام دعوة الله.

وانطلق بالمسلمين ناجية بن جندب . . في طرق غير مألوفة . . إلى أن وصلوا إلى سهل الحديبية . . وهنا أبت القصواء (ناقة الرسول) أن تتقدم برسول الله . . فقال ﷺ عندما ظن الصحابة أن القصواء (حرنت) «ما خلأت وما هو لها بخلق، ولكن حبسها حابس الفيل» .

وعلم النبى أن الله لم يأذن له بدخول مكة بالقوة . . وفتح النبى باب المفاوضات بينه وبين مكة عندما قال :

- «والذى نفس محمد بيده، لاتدعونى قريش إلى خطة يعظمون بها حرمات الله وفيها صلة الرحم إلا أعطيتهم إياها» . .

وكانت مفاوضات الحديبية التى أدت إلى صلح الحديبية الشهير . . وفى هذا الصلح بلغت حكمة النبى الذروة . . وبلغت حنكته السياسية منتهاها . . فها هى قريش التى حاربته . . وألبت عليه القبائل . . تعترف به . . وتصالحه . . وتعاهده أن يرجع هذا العام عن العمرة، حتى لايقول الناس أن النبى دخل مكة عنوة على أن يتم للمسلمين ذلك فى العام التالى . . ولكن عمر بن الخطاب وجد فى هذا الصلح امتهانا للمسلمين . . ولم يضمر ذلك فى داخله بل توجه إلى النبى ﷺ باندفاعه المشهور ودار هذا الحوار بينه وبين النبى :

- ألست رسول الله؟

- بلى . .

- ألسنا على الحق وعدونا على الباطل؟

- بلى . .

- فلم نعطى الدنية فى ديننا إذا؟

- « إنى عبدالله ورسوله لن أخالف أمره، ولن يضيعنى » .

- ألست تحدثنا أنا سنأتى البيت فنطوف به؟

- « بلى؟ هل أخبرتك أنك تأتيه هذا العام؟ » .

- لا . .

- « فإنك آتيه ومطوف به ؟ » .

عجيب أمر عمر . .

لقد طرح نفس هذه الأسئلة على الصديق . . والصديق قال له :

- الزم غرزك . . إنه على حق . .

ولكن عمر يأبى إلا يواجه النبى ﷺ فى دخيلة نفسه . . فهو يريد الإسلام عزيزا . . ويريد أن يأخذ الحق بالقوة . . وليكن ما يكون . . ولكن حكمة النبى ﷺ ردته إلى الصواب . . إن هذا الصلح الذى يبدو فيه تنازل من الرسول . . له ثمرات كثيرة ستتضح فيما بعد . . ولكن عمر كان يتمنى أن يدخل مكة . . وكان يشعر بمرارة وهو يرى قريشا تحاول أن تفرض شروطها . . حتى أن النبى قال له :

- ياعمر . . إنى رضيت وتأبى ! !

واستعاذ عمر من الشيطان . .

ثم جاء الوحى والمسلمون فى طريقة العودة إلى المدينة . .

- ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ۝١ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ۝٢ وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا﴾ إلى آخر هذه الآيات الكريمة من سورة الفتح . .

وهنا يسأل عمر الرسول أيضا :

- أو فتح هو يارسول الله؟

- «نعم والذى نفسى بيده إنه لفتح» .

* * *

ويروى أيضـا كيف كان عـمر شـديدا فى الحق حتى عـلى أقرب الناس . . لقد ساءه أن تراجع ابنته حفصة زوجة النبى ﷺ زوجها فى بعض الأمور . . وكان عـمر يغضب لذلك . . وكثيـرا ما نهرها على ذلك . . إلى أن شجر خلاف بينها وبين النبى . . وعلم عمر بذلك . . وجاء على عجل إلى بيت الرسول . . وطلب منها النبى أن تتكلم . . ولكنها قالت :

- تكلم يا رسول الله ولا تقل إلا حقا ! !

وما كادت تقول هذه الكلمة حتى ارتج عمر من الأعماق . . كيف تجرؤ ابنتـه أن تقول للرسول . . «لاتقل إلا حقـا» . . ومن يقول الحق إن لم يقله الرسول الكريم . . فلطم ابنته على وجهها . .

ولكن النبى طلب منه أن يكف عن ذلك . . إلا أن عمر توجه الى ابنته قائلا :

- ياعدوة الله . . النبى ﷺ لايقول إلا الحق . . والذى بعثه بالحق لولا مجلسه ما رفعت يدى حتى تموتى!!

* * *

وما أكثر مواقف عمر أيام الرسول ﷺ . .

ولقد كان عمر مثلا يحب الخمر فى الجاهلية . . ولكنه عندما أسلم كان يتمنى أن تحرم الخمر لما فيها من أضرار . . وقد سعد عندما حرمت الخمر ونزلت هذه الآيات الكريمة من سورة المائدة:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٩٠) إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلاةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ [المائدة : ٩٠-٩١]

كان من آماله رضى الله عنه أن يفرض الحجاب على نساء النبى بما يتلاءم من منزلتهن فى قلوب المؤمنين . . وسعد أيما سعادة . . عندما تحقق هذا الأمل بنزول الآيات الكريمة من سورة الأحزاب:

﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الأُولَىٰ وَأَقِمْنَ الصَّلاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا (٣٣) وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾ [الأحزاب: ٣٣-٣٤].

* * *

وكثـيرا ما نزل القرآن الكـريم مؤيدا رأى عمر . . كـالذى حدث عندمـا شاور النبى أصـحابه فى أسـرى بدر . . وبينما كـان أبو بكر يفضل الفداء كان من رأى عمـر قتل الأسرى . . ونزل القرآن الكريم مؤيدا رأى عمـر . . لأن عمر كان يريد أن يظهر قـوة الإسلام لقريش التى طالما سامت المسلمين سـوط العذاب، غيـر أن النبى اقتنع برأى أبى بكر . . وهنا نزل قوله تعالى مؤيدا رأى ابن الخطاب:

﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَوْلا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلالاً طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٩﴾﴾ [الأنفال: ٦٧-٦٩]

* * *

وفى كل مـواقف عمر . . تراها نـابعة من إنسـان قوى الإيمان . . يريد العزة لدينه ولنبـيه والمسلمين . . إنه يحب الإسلام حبـا جما . . ويحب رسول الله حـبا عظيمـا، فهو سيف من سـيوف النبى . . إن شاء رفعه . . وإن شاء أغمـده . . كما كان يقول . . ومن هنا لم يطق مايراه ماسا بكرامة الإسلام والمسلمين . .

ومن هنا نرى موقـفه من رأس المنافقين فى المدينة عـبدالله بن أبى ابن سلول . . الذى كان يدّعى الإسـلام، ولكنه كان فى قرارة نفـسه يكره النبى والمسلمين . . لأنه كان يمنـى نفسه أن يصبح حاكـما على يثرب . . وعندما هاجـر النبى عليه الصلاة والسلام إليـها . . ضاعت

آمـالـه أن يتـزعم المديـنة . . فكان رغم تظـاهره بالإسـلام يكـيـد للمسلمـين . . وكم من الفتن حاول أن يشعل نارهـا . . ولكن حكمة النبى ﷺ ورأفته ورحمته حالت بينه وبين تحقيق مآربه الدنيئة . .

لقد حاول مثلا أن يشعل نار الفتنة بعد غزوة بنى المصطلق . . وأن يوقع بين المهاجرين والأنصار ، وقال : لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل . . ويقصد بالأعز الأنصار . . ويقصد بالأذل المهاجرين . .

بلغت هذه الكلمات الوقحة مسامع محمد ﷺ وكان يجلس معه عمـر بن الخطاب الذى استـأذن النبى أن يقوم فـيقـتل هذا المنافق . . ولكن لين النبى ورحمته وحكمته وإدراكه البعيد للأشياء رد عمر عما كان ينوى عليه . . وقال له :

«لا تتحدث العرب أن محمدا يقتل أصحابه» . .

وقـد بلغ من كـراهيـة المسلمين لعـبـدالله بن أُبى أن أبنه أراد أن يقتله . .

ومرت الأيـام . . وجاء أجل هذا المنافق . . وجـاء ابنه يطلب من النبى أن يصلى عليـه . . ووافق النبى . . غيـر أن عمر ضـاق صدره بذلك ، وطلـب من النبى ألا يصلـى على هذا الرجل الذى كـانت حيـاته حربا على الإسـلام والمسلمين . . إلا أن رقة النبـى ﷺ وقلبه الكبير أبت إلا أن يستجيب لدعوة الابن الذى أراد يوما قتل والده من أجل الإسـلام . . وطلب عمـر من النبى ألا يصلى عليه لأن الـقرآن نفسه يقول :

﴿ اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (٨٠) ﴾ [التوبة : ٨٠]

ويقول له النبى :

«إن ربى خيرنى فاخترت» . .

ما أروع جلال هذا المشهد التاريخى . .

محمد ﷺ بقلبه الكبير . . برحمته الرائعة . . بخلقه الكريم الذى يصفه القرآن بقوله : وإنك لعلى خلق عظيم . . يريد أن يستجيب لنداء ابن . . يرى والده قد فارق الدنيا . . بأن يشرفه النبى بالصلاة على والده . . ربما يكون فى صلاته رحمة بهذا الأب الذى غرته الأمانى والأحلام وطموحات الحياة . . ولكنه فارق الدنيا ولم تتحقق من أمانيه شىء . . لقد أخذ معه ذنوبه ومكائده ودسائسه التى طالما كاد بها للإسلام . . إن الابن هنا . . يدافع عن البنوة ، أن يرحم هذا الأب الذى أضله هواه . . فيرق قلب النبى لهذا الطلب .

وعمر يرى فى هذا الرجل الذى رحل عن الدنيا ولم تقدم يداه شيئا ينفعه أو يذكره له للناس لايستحق أن يقف النبى ﷺ ليصلى عليه .

وتنزل آيات القرآن الكريم . . مؤيدة وجهة نظر عمر بن الخطاب . . القرآن يخاطب النبى ﷺ :

﴿ وَلا تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٨٤﴾ ﴾ [التوبة : ٨٤]

إن الأيام تسير . .

وتمر أيام رسول الله . .

أيام جليلة كأعظم مايكون الجلال . .

أيام كلها عطاء وجهاد لله . . وفى سبيل الله . .

إنها أجمل أيام شهدتها الحياة . .

تلك الأيام التى كان يملؤها النبى العظيم نورا وهداية وبهاء .

أيام قليلة جدا فى عمر الزمان . . عاشها النبى على دنيانا . . فملأها بالأمل والأمن والحياة . . وحول هذا المجتمع العجيب . . مجتمع الجزيرة العربية بقبائله المتنافرة . . بعاداتهم السخيفة . . بحياتهم على هامش الحياة . . فجعل من هذا المجتمع أعظم مجتمع عرفه التاريخ . . وحد كلمة العرب . . جعل لهم دستورا يربط بينهم وبين السماء برباط . . وجعل لهم قيما ومبادى يجب أن تراعى يشعر الإنسان بإنسانيته . . وأنه ليس سائمة ولا عبد . . لأن للعبيد حقوقا . . وللمرأة حقوقا . . وللعلاقات الإنسانية بين الناس قوانين تحكمها .

ورحل أعظم من عرفته الحياة إلى جوار الله . . بعد أن ملأ الأرض عدلا وأملا . . وفهما للحياة وما وراء الحياة . .

وصنع مجتمعا معطرا بعطر الروحية .

مجللا بأكاليل الإيمان . .

وترك مدرسة بالغة الروعة . . حول فيها رعاة الإبل والأغنام إلى قادة للإنسانية ورسل للحضارة . . وعظماء فى ميادين الحرب والسلام . . وكان هو نفسه عليه الصلاة والسلام بسيطا غاية البساطة . . يملأ الحياة بالحياة . . يمشى بين الناس كواحد منهم . . فإذا ما شعر ذات يوم أحدهم وهو يقف أمام النبى العظيم بالمهابة . . فارتعدت فرائصه . . يقول له النبى العظيم : « هون عليك فأنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد » . .

رحل رسول الله ﷺ بعد أن أدى الرسالة وأقام أعظم مجتمع عرفه التاريخ . . وحوّل مجتمع الجزيرة العربية إلى دولة لها ذات وكيان . . ودستور ومبادئ وقيم ورسالة . .

وكان من الصعب أن يتحمل المسلمون الفجيعة فى رحيل الرسول . . رغم أن الموت حق . . ورغم أن القرآن الكريم قال :

- ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [الزمر : ٣٠]

- ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُّؤَجَّلاً وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٥﴾ ﴾ [آل عمران : ١٤٤]

رحل الرسول إلى جوار ربه الكريم. .

وسمع عـمر أصوات نحيب تخـرج من بيت النبى فى ذلك اليوم الحزين. . قبل ظهر الاثنين من السنة الحادية عشرة للهجرة.

وتجمع الناس وقد هزتهم الفجيعة فى وفاة نبيهم.

إن عـمـر العظيم. . الذى عـاش مع النبى ﷺ أجـمل فـتـرات عمره. . منذ أسلم وهو فى السادسة والعـشرين من عمره. . وشاهد معه جمـيع معاركه. . وكان قريبا من قلبـه عليه الصلاة والسلام. . كـان من الصعب عليـه تحمل هـذه الصدمـة. . والنبى حبـيب إلى قلبه. . أثير إلى نفسه. . لقد انقطع بموته وحى السماء. .

ولن تعود العيون تكتحل برؤيا حبيب الله. . وحبيب الناس. .

كم هى الصورة مختلفة بالرسول عنها بدون الرسول. .

فقد انقطع وحى السماء. .

ولن يرى الناس محمدا وهو يواسى الفقير، ويمسح بيديه الرحيمة على آلام المحرومين. .

ولن يرى الناس بعـد اليـوم ذلك الوجه الصـبـوح الذى تشع منه الرحمة والحب والحنان. .

الفجـيعة أليمـة إذن. . وعمر يسـمع عن وفاة الرسول. . فتـهزه الفجيعة من الأعماق. . إنه لا يصدق أن أعظم من جاء إلى الحياة قد غادر الحياة. .

وما طعم الحياة بدون رسول الله . .

هنا قام عمر خطيبا يدعو الناس .

- إن رجالا من المنافـقين يزعمون أن رسول الله قـد مات . . وإنه والله ما مات، ولكنه ذهب إلى ربه كمـا ذهب موسى بن عمران . . والله ليرجعـن رسول الله فيقطعن أيدى رجال وأرجـلهم زعموا أنه مات . .

وتمضى الأحداث فى ذلـك اليوم الحزين من أيام هذا الـصيف فى السنة الحادية عشرة من الهجرة . .

ويأتى أبو بكر من السنح . . ليدخل على النبى العظيم فـيقبله . . ويقول كلمته الخالدة :

- طبت حيا وميتا يارسول الله .

ويخرج إلى المسجد . . حيث الحشد الهائل من الناس الذين جاءوا بعد أن هزهم النبأ الخطير . . وعمر يتـوعد الناس . . فيصعد المنبر . . وتشرئب الأعناق . . ويصمت الجميع . . وهم ينصتون إلى الصديق :

- من كان يعبد محمدا فإن محمدا قد مات . . ومن كان يعبد الله فإن الله حى لايموت .

ويتلو قوله تعالى :

- ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ (١٤٤) ﴾ [آل عمران : ١٤٤]

هنا ثاب عمـر إلى رشده . . لقد هزته كلمات الله . . كـيف غاب عنه كل هذا . . كيف غـاب عنى أن محمدا بشـرا . . وسوف يلاقى ربه . . بديهـية من بدهيـات حكمة الموت والحـياة كـأن هذه الآيات الكريمة من كتاب الله قد غابت عنه . . إنها الصدمة المروعة فى موت أحب الناس إلى قلبه . .

واستـمع عمر إلى كلمـات أبى بكر . . فنزلت الدموع من عـينيه حتى بللت لحيته . .

ولكن الأحـداث سارت بسرعـة . . فقـد علم أبو بكر وعـمر أن الأنصار مجتمـعون فى سقيفة بنى ساعدة برئاسـة سعد بن عبادة . . وأن سعد يطلب الخلافة لنفسه وأنه يقول أن الأنصار أولى بالخلافة .

كل ذلك حدث وما زال جسد النبى فى فراشه . .

إنهـا أحـداث خطـيـرة يمكن أن تحـدث فـتنة بـين المهـاجـرين والأنصار . . وأسرع أبو بـكر وعمر وأبو عبيـدة بن الجراح إلى مكان الاجتمـاع . . ودارت مناقشات عاصفة بين الثـلاثة . . وبين سعد بن عبادة . .

وتحدث أبو بكر عن الخلافـة . . وأنها لابد أن تكون من قريش . . بعد أن تحدث عن فضل المهاجرين . . وفضل الأنصار . . وأنه لابد أن يكون الأمراء من قريش والوزراء من المدينة . .

واقتـرح الحباب بن المنذر بن الجـموح أن يكون من الأنصار أمـير ومن المهاجرين أمير . . هنا قال عمر :

- هيهات لايجتمع سيفان فى غمد . . والله لا ترضى العرب أن يؤمروكم ونبيها من غيركم . . ولكن العرب لا تمتنع أن تولى أمرها من كانت النبوة فيهم وولى أمورهم منهم . . ولنا بذلك على من أبى من العرب الحجة الظاهرة، والسلطان المبين . . من ذا ينازعنا سلطان محمد وإمارته ونحن أولياؤه وعشيرته إلا مدل بباطل، أو متجانف باثم، أو متورط فى هلكة .

واشتد الجدل والنقاش فى هذا اليوم الحزين . . وأصبحت الفتنة قاب قوسين أو أدنى . . الصراع على أشده على من يتولى الخلافة بعد الرسول . . والرسول العظيم مازال جسده الطاهر لم يدفن بعد .

ولولا أن صوتا من الخزرج حسم الأمر . . ما كان أحد يعرف ماذا ستكون وجهة التاريخ . . إنه بشير بن سعد أبو النعمان بن بشير . .

لقد وقف وسط معمعة هذا الصراع العنيف . . والجدل والمناقشة . . والحدة البالغة التى ظهرت فى كلام المتحدثين . . ليقول للناس :

- يا معشر الأنصار إنا والله لئن كنا أولى فضيلة فى الجهاز ضد المشركين وسابقة فى هذا الدين، وما أردنا به إلا رضاء ربنا، وطاعة نبينا . . والكدح لأنفسنا . . فما ينبغى لنا أن نستطيل على الناس بذلك . . ولاينتقى من به الدنيا عرضا، فإن الله ولى المنة علينا بذلك . . ألا إن محمدا ﷺ من قريش، وقومه أحق به وأولى، وأيم

الله لا يرانى الله أنازعهم هذا الأمر أبدا، فاتقوا الله ولاتخالفوهم.. ولاتنازعوهم.

وأيا كان السبب الذى دفع بشيرا وهو من الأنصار ليتحدث هذا الحديث الذى رجح كفة مبايعة أبى بكر.. هل كان ذلك نكاية فى سعد وهو خزرجى مثله حتى لايؤول له الأمر .. أو غير ذلك من الأسباب.. إلا أن كلمات بشير أقنعت الكثيرين من الأنصار بضرورة أن يكون الخليفة من قريش.. وهنا قدم أبو بكر عمر ليبايعه الناس.. إلا أن عمر قال:

- والله لأن أقوم فأخر كما يخر البعير، أحب إلىّ من أن أتقدم على أبى بكر.

وقال أبو عبيدة بن الجراح: كيف أتقدم على أفضل المهاجرين وثانى اثنين إذ هما فى الغار..

وقال عمر:

- أيكم يطيب نفسا أن يتقدم قدمين قدمهما رسول الله ﷺ، رضيك رسول الله ﷺ لديننا أفلا نرضاك لدنيانا.

وتقدم عمر فبايع أبا بكر وبايعه أبو عبيدة وبايعه سائر الناس.. المهم لقد تمت البيعة لأبى بكر.. وسمع الناس فى المدينة تكبير الناس:

وكان على بن أبى طالب مازال مشغولا بجهاز رسول الله.. ولم يستمع إلى كلام عمه العباس لأن يكلم الناس حتى يبايعوه.. كان

يعتقد أن هذه بديهية لاتحتاج إلى مناقشة . . فهو ابن عم الرسول . . وزوج ابنته فاطمة الزهراء . .

والحديث عن أحداث السقيفة . . التى أدت إلى خلافة أبى بكر حديث يمكن أن يفرد له مجلدات . . ولكن لابد أن نقف عنده بعض الشىء لسبب بسيط جدا . . وهام جدا . . هو أن أحداث هذا اليوم أثرت على مختلف العصور . . فلقد دار حديث طويل . . وصراع سياسى طويل . . على مر العصور الإسلامية . . على أيهما أولى بالخلافة أبى بكر . . أم علىٌ . .

فأبو بكر هو أول من آمن من الرجال بالرسول . .

وهو الذى وقف معه وقفة شجاعة رائعة فى مختلف المواقف . .

كما أنه الذى اختاره النبى رفيق رحلته فى الهجرة من مكة إلى المدينة . . . بجانب أنه أنابه فى الصلاة أثناء مرضه . . بل إن النبى ﷺ غضب أشد الغضب عندما صلى عمر بالمسلمين أثناء مرض النبى، ولم يكن أبو بكر موجودا . . بجانب إيمان الصديق العميق بالدعوة وصاحب الدعوة . . والذى أطلق صيحته المشهورة «إن كان قد قال فقد صدق» . . أى إن كل كلمة يتفوه بها رسول الله صادقا تماما . . ما دامت قد صدرت عن رسول الله . . فأبو بكر لم يهتز إيمانه كما اهتز إيمان البعض عندما تحدث النبى ﷺ عن رحلة الإسراء والمعراج «إن كان قد قاله فقد صدق» . .

و . . ما أكثر مواقف الصديق التى قربته من النبى ﷺ ورشحته

بعد ذلك لأن يكون خليفة للمسلمين. . وخاصة أنه لم يرد فى كتاب الله ولا فى أحاديث النبى شيئا عما تكون عليه الخلافة بعد النبى.

ولو كان فى كتاب الله. . أو فى سنة النبى شىء من هذا القبيل ما حدث أى خلاف بين المسلمين. . فلسبب يعلمه الله وحده. . ترك النبى الأمر بعده شورى بين المسلمين. . وإن كانت كما قلنا المقدمات التى سقناها بالنسبة لأبى بكر كانت سببا قويا لمبايعة المسلمين له. . وعلى رأسهم عمر بن الخطاب. .

إلا أن علىّ بن أبى طالب كان يرى أنه أحق بالخلافة من غيره. . لقرابته من رسول الله. . ولزواجه من فاطمة الزهراء. . ولمواقفه فى الإسلام. . . فلا أحد ينكر فضل الإمام بشجاعته الخارقة. . بجانب فقهه وعلمه. . لقربه من رسول الله. .

وعلىّ كان يرى أن أبا بكر كانت حجته هو أنه من قريش. . والنبى ﷺ من قريش. . ومن هنا فالأمير يجب أن يكون من قريش. . وهو بهذه الحجة نفسها أقرب إلى الرسول من أى شخص آخر. . فلم لا تكون الخلافة له!

وروى عن علىّ رضى الله عنه قوله معلقا على تلك الأحداث التى جرت فى السقيفة:

فإن كنت بالشورى ملكت أمورهم

فقد تم هذا والمشيرون غيب

وإذا كنت بالقربى حججت خصيمهم

فغيرك أولى بالنبي وأقرب؟

و . . ما أكثر الأحاديث التي قالها النبي في ابن عمه عليٍّ . . منها قوله :

- «أنت مني بمنزلة هارون من موسى غير أنه لانبي بعدي» .

وعندما عاد النبي ﷺ من حجة الوداع الخالدة . . وعند غدير (خم) قال النبي أمام ألوف المسلمين :

- «أيها الناس من أولى المؤمنين من أنفسهم؟» .

قالوا : الله ورسوله أعلم . .

- «أنا أولى بالمؤمنين من أنفسهم . . ومن كنت مولاه . . فعلي مولاه . . الله وال من والاه ، وعاد من عاداه . . وانصر من نصره . . واخذل من خذله . . وأدر الحق معه حيثما دار» .

* * *

دارت الأحداث وسارت بسرعة في ذلك اليوم الحزين من التاريخ . .

يوم انتقل النبي ﷺ إلى الرفيق الأعلى . . فأحداث السقيفة نتج عنها مبايعة الناس لأبي بكر الصديق . . وكان عليٌّ مشغولا بجهاز رسول الله . . ولم يستمع إلى قول عمه العباس أن يقوم ليبايعه الناس . . أبت نفسه أن يترك الجسد الطاهر . . بحثا عن الخلافة . .

لقد قام عليٌّ وعمه العباس وولداه الفضل وقثم ، وأسامة بن زيد

بإعداد النبى للمثوى الأخير . . وقام علىٌّ بعملية الغسل للجسد الطاهر . . ثم كفن فى ثلاثة أثواب بيض يمانية . . وقف الإمام علىٌّ على الجسد الشريف يقول:

- بأبى أنت وأمى يارسول الله . لقد انقطع بموتك مالم ينقطع بموت غيرك من النبوة والأنبياء وأخبار السماء . . وخصصت حتى صرت مسليا عما سواك، وعممت حتى صار الناس فيك سواء . . ولولا أنك أمرت بالصبر، ونهيت عن الجزع، لأنفذنا عليك ماء الشئون ولكان الداء مماطلا، والكمد محالفا . . وتلالك . . ولكنه مالا يملك رده، ولايستطاع دفعه . . بأبى أنت وأمى، اذكرنا عند ربك واجعلنا من بالك .

و . . لكن علىٌّ بوغت بصيحات الناس . . وعرف أمر المبايعة . . وآثر الصمت حتى لاتحدث فتنة . . ولم يستمع بعد ذلك لتأليب أبو سفيان له . . فقد كره أبو سفيان أن يكون أبو بكر خليفة للمسلمين . . وكان يراه على حد قوله: أذل بيت فى قريش . . لقد هاله أن يصبح الصديق خليفة للمسلمين، فأراد أن يؤلب علىٌّ بن أبى طالب عليه وأن يبايعه بالخلافة . . وأن ينقض الناس مبايعة أبى بكر الصديق . . ولكن عليا كان يعرف تماما مايدور فى نفس أبى سفيان . . ويعلم تماما أنه يكره أن تئول الخلافة لأبى بكر . . وأن يبايعه بالخلافة لاحبا فيه . . ولكن كراهية فى أبى بكر . . لأنه ما كان يعادى النبى إلا لأنه كان يرى أن النبوة رفعت آل هاشم إلى مكانة عالية . . بل إنه عندما

وقف مع العباس عم النبى قبيل أن تفتح جيوش المسلمين مكة . . وقف ورأى جنود النبى بروحهم المعنوية المرتفعة . . ورأى الأعلام الإسلامية الخفاقة . . وعلم يقينا أنه لا قبل لقريش أو لغيرها بوقف تيار الدعوة الإسلامية . . يومها وقف أبو سفيان مبهورا وهو يقول للعباس :

- لقد أصبح ملك ابن أخيك عظيما . .

إنه يرى فى هذا الموقف سلطانا وجاها وملكا وعظمة . . لانبوة تهدى الناس من الضلال إلى الهدى . . وترسم طريق الخير والسلام . . وترسم للإنسان والمجتمع السلوك القويم . . يومها رد عليه عم النبى ﷺ :

- يا أبا سفيان . . إنها النبوة . .

إن الإمام لم يستجب لتأليب أبو سفيان . . وقال عندما سمعه يقول له :

- أغلبكم على هذا الأمر أذل بيت فى قريش وأقلها . . أما والله لئن شئت فلأ ملأنها على أبى فضيل خيلا ورجلا . . ولأسدنها عليه من أقطارها .

وأمام إصرار أبى سفيان على إثارة علىّ، قال له علىّ يكاشفه بحقيقة الأمر :

- يا أبا سفيان . . طالما كدت للإسلام وأهله، فما ضرهم شيئا . . أمسك عليك فإنا رأينا أبا بكر لها أهلا .

لم يرد الإمام عليّ أن يشعلها فتنة . .

ففى اليوم التالى ليوم السقيفة . . بايع الناس أبا بكر البيعة العامة .

ووقف أبو بكر خطيبا فى الناس . . وتكلم قبله عمر بن الخطاب مبايعا . .

– إن الله قد جمع أمركم على خيركم . . صاحب رسول الله وثانى اثنين إذ هما فى الغار . . . فقوموا فبايعوا .

وما أكثر الروايات التى قيلت حول محاولة عمر بن الخطاب أن يبايع على أبو بكر ولو بالقوة . . وهناك روايات مختلفة ومتناقضة حول هذا الموضوع . . ولكن الأقرب إلى المنطق وإلى العقل أن عليا قد بايع بعد ذلك حتى لايحدث اختلاف وفتنة بين المؤمنين . . لأنه كما سبق أن قلنا رفض استفزازات أبو سفيان . . كما نهى ووقف بحزم ضد جماعة من قريش . . وقد أخذتها النعرة العصبية أن تأخذ من الأنصار موقفا . . لأنهم بايعوا أبا بكر . . بل إنه ذهب إلى المسجد . . وهناك لم يتحدث من قريب أو بعيد عن الخلافة . . بل أخذ يعدد فضل الأنصار . . وختم حديثه بما أنزل فيهم من قرآن :

– ﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [الحشر : ٩]

ولا أدل على ذلك أيضا من قوله:

- سلامة الدين أحب إلينا من غيره.

نعم إن عليا كان يطلب.. أو يتمنى لنفسه الخلافة.. وكان يرى نفسه أقرب الناس لها..

ومما ترويه الروايات.. أنه سأل عن حجة قريش بأن يكون الأمر لها بعد النبى فقالوا:

- احتجت بأنها من شجرة الرسول..

فقال:

- احتجوا بالشجرة.. وأضاعوا الثمرة.

وهذا يعنى أن ثمرة النبوة هو .. وبالتالى فهو أقرب وأحق الناس بالخلافة .. ولكنه عندما رأى أن البيعة قد تمت لأبى بكر فإنه من الواجب عليه ألا يحدث انشقاقاً فى صفوف المسلمين .. وأن يكون جندياً من جنود الإسلام .. وخاصة أن الفتن كانت قد أطلت برأسها قبيل وفاة الرسول .. عندما ادعى البعض النبوة.. وكانت المهام أمام الخليفة الجديد صعبة للغاية وشاقة للغاية .. وليس هو الذى يحدث ثقوباً فى ثوب الإسلام..

لقد بويع الصديق بالبيعة العامة..

وكان عمر هو وزيره .. ومستشاره .. وأقرب الناس إلى قلبه.

وتمر الإيام . . وأبو بكر الآن خليفة للمسلمين . .

وأقرب الناس إلى نفسه هو عمر بن الخطاب . .

وفى خلافة الصديق . . يشاهد عمر تساقط حفظة القرآن شهداء فى المعارك التى خاضها أبو بكر ضد المرتدين ومانعى الزكاة ومدعى النبوة . . ويشير إلى الصديق أن يجمع القرآن . . ويتردد الصديق قليلاً . . لأن الرسول لم يأمر بذلك . . وعمر يلح عليه فى ذلك حفاظاً على كتاب اللّٰه . . إلى أن يشرح اللّٰه قلب أبو بكر الصديق فيوافق على جمع القرآن . . وحفظه من الضياع . . فكلف أبو بكر زيداً بن ثابت بهذه المهمة الصعبة الذى جمعها من صدور الرجال . . ومن سعف النخيل . . وصفائح الحجارة .

وهو موقف عظيم من المواقف التى تذكر لعمر . .

وفى خلافة أبو بكر كان منتهى أمله الصديق أن يحقق آمال الرسول . . وكان رسول اللّٰه قد أعد جيشاً إسلامياً بقيادة أسامة ابن زيد للانتقام لشهداء مؤته . . ومات الرسول عليه الصلاة والسلام . . وجيش أسامة ما زال معسكراً (بالجرف) . . وكان أسامه شاباً صغيراً . . وكان أن أمر أبو بكر أن يسير جيش أسامة إلى الجهة التى كان الرسول قد كلفه بها . . وبلغ من جلال أبى بكر لكل أمر من أوامر الرسول أنه سار بجانب أسامة . . وكان

أسامة راكبا . . والصديق يسير على قدميه حتى خجل أسامة وأراد النزول . . فرفض أبو بكر وقال له:

- واللّه لا تنزل . . وواللّه لا أركب . . وما على أن أغبر قدمى فى سبيل اللّه ساعة . . فإن للغازى بكل خطوة يخطوها سبعمائة حسنة تكتب له . . وسبعمائة درجة ترفع له . . وترفع عنه سبعمائة خطيئة .

وكان عمر من جيش أسامة . . وطلب الصديق منه أن يترك عمر ليعاونه فى الخلافة . . وكان عمر يجد أن أسامة ما زال صغير السن . . وليس من المعقول أن يكون قائداً لجيش المسلمين فى سنه تلك الصغيرة . . كما كان يرى نفس الرأى بعض الصحابة . . بل أنهم أسروا بذلك إلى عمر حتى يكلم الخليفة فى ذلك . . وتقدم بالفعل عمر إلى أبى بكر يحدثه بهذا الحديث . . ولكن الصديق الهادئ الوادع ثار ثورة عنيفة على عمر . .

ترى هل غاب عن عمر طبيعة الصديق . .

إن الصديق لا يغير شيئاً أمر به رسول الله ﷺ، والرسول هو الذى ولاه القيادة . . فهل يقدر أبو بكر أن يغير أمر رسول اللّه لقد أخذ بلحية عمر وقال له:

- ثكلتك أمك وعدمتك يا ابن الخطاب . . استعمله رسول الله ﷺ وتأمرنى أن أنزعه .

وأحس عمر فى أعماق نفســه بالخجل . . فقد راجع نفسه . . وما أكثر ما كان يراجع عمر نفسه. . بل إن مراجعة نفسه هذه هى أهم مميزات عمر . . وهذا سيظهر بوضوح عندما يؤول إليه خلافة المسلمين. .

لقد ودع أبو بكر الجيش. .

وعاد ليباشــر أمور المسلمين فى تلك الفترة العصيــبة من فترات التاريخ بعد وفاة الرسول. .

وفكر الخليفة كيف يعيش؟

كيف ينفق على أهله؟

وهداه تفكيره أن يعود للتجارة!!

وشاهد الناس الصديق يحمل على يديه القــماش ليتاجر به . . وبينما هو فى طريقه إلى السوق شاهده عمر. .

- إلى أين ؟

- إلى السوق.

وهنا أخذه عمر إلى أبى عبــيدة الذى كان قائماً على بيت المال ليفــرض له قوت رجل من المسلمين ليس بأفضلهم ولا بأوكــسهم وكسوة للشتاء وأخرى للصيف.

وفرض له فى اليوم نصف شاة. .

حتى يتفرغ لإدارة إمارة المسلمين. .

وعندما عاد جيش أسامة من مهمته فى الشام . . قابله عمر بن الخطاب بترحاب شديد وهو يقول له:

- السلام عليك أيها الأمير . .

وعندما تعجب أسامة من ذلك قال له عمر:

- مات رسول اللّه ﷺ وأنت على أمير . .

* * *

ومن مواقف عمر التى وقف أمامها المؤرخون كثيراً . . وخاضوا فيها كثيراً واختلفوا حولها . . موقفه من خالد بن الوليد الذى عزله من قيادة جيوش المسلمين . . وهو فى أوج انتصاراته وهل كان عزله خوفاً من أن يفتن به المسلمون حقيقة كما يقول؟!

والذى يدرس هذه الحادثة ويحللها . . يجد أن موقف عمر بن الخطاب من خالد يرجع إلى عدم اقتناع عمر بتصرفات خالد . . سواء مع النبى . . أو عند خلافة أبى بكر . . فقد كان يراه إنساناً متهوراً فى تصرفاته . . ولم يستسغ تصرفاته . . ومنها هذا التصرف الذى لم يرض عنه الرسول نفسه عندما أرسله إلى بنى حنيفة يدعوهم إلى الإسلام ولم يأمره بقتالهم . . ولكن خالد رغم أنه جادلهم . . وعرف أنهم لم يريدوا القتال وفضلوا الاستسلام . . أمر خالد بتكتيف البعض . . وهرب أحدهم وجاء إلى النبى عليه الصلاة والسلام . . وحكى له هذه القصة . .

فرفع النبى بصره إلــى السماء. . وكان ذلك فى حضــور عمر بن الخطاب . . وقال:

« اللهم إنى أبرأ إليك مما صنع خالد». .

وأرسل النبى عليــه الصلاة والسلام علىَّ بن أبى طـالب إليهم يسترضيهم ويعوضهم. .

ولم يرض عمــر عنه يوم أرسله الصديق فــى حروب الردة إلى مـالك بن نويرة . . وقد قـتله وتزوج امـرأته . . رغم أن الرجل عرض عليه أن يحكم فى أمره الخليفة نفسه . . وثارت فى أعماق عمــر الكراهيــة لما فعله خـالد . . كيف يتـزوج امرأة مـالك بن نويرة؟! ومهمـا حاول البعض أن يجد تبـريراً لمقتل مالك . . وأن خالدا أسره وأمر المنادى أن ينادى بأن يدفئوا أسراهم . . وأن هذا النداء معناه فى لغة القوم . . قـتلهم . . وبذلك قتلوا مالكاً على أعـتقـاد أن هذا أمر من خـالد . . وأن خـالداً لم يكن فى نيتـه ذلك. . القول غير مقنع . . وخاصة أنه تزوج زوجته بعد أن قتله مما دعا البعض أنه قتل مالكاً من أجل زوجـته . . وقد طلب عمر بعد هذا الحـادث من أبى بكر أن يعزل خـالداً على أساس أن فى سيفه رهقاً على حد تعبيره. . ولكن أبا بكر رفض هذا المطلب. . مبرراً تصرف خالد بقوله:

- إنه تأول فأخطأ. .

ولم ينس عمــر له هذا مطلقاً . . حـتى رآه مقبـلاً من غزواته

شامخاً منتصراً . . وقد وضع على رأسه بعض الأسهم مباهيا بشجاعته فى حروب الردة . . فقام إليه عمر بن الخطاب وأخذ هذه الأسهم وحطمها على ملأ من الناس. . وقال له معاتباً ومؤنباً:

- قتلت امرءاً مسلماً ثم نزوت على امرأته واللّه لأرجمنك بأحجارك . .

وهذه شجاعة نادرة من عمر بلا شك. .

فهو يعرف من هو خالد بن الوليد . . ويعرف مكانته ومنزلته وفرط شجاعته . . ولكنه لا يبالى بشئ ما دام يشعر ويؤمن بأن سلوك خالد لم يكن سلوكاً يرضى اللّه ورسوله. .

وتاريخ خالد واندفاعه . . وتصرفه من تلقاء نفسه فى بعض الأحيان تصرفات ربما يكون لها بعض العواقب هى التى زادت من غضب عمر عليه . . مع علمه وقدره وجهاده فى سبيل اللّه . . فهو لا ينسى يوم فتح مكة . . يوم أمره النبى عليه الصلاة والسلام بعدم قتال أحد . . فالنبى يريد أن يدخل البلد الحرام مسالماً . . لا يريد أن يسفك الدم فى بلد هى أحب بلاد اللّه إلى نفسه . . البلد الذى عاش فيه طفولته وشبابه. . والذى نزل إليه فيها وحى السماء . . طالما أن مكة سوف تذعن له وهى ترى قوة المسلمين التى لا قبل له بها . . ولكن خالداً قتل أكثر من عشرين رجلاً من قريش وأربعة من هذيل . . وعلم الرسول فأرسل إلى

خالد من يوقفه عن القتال . . واعتذر خالد . . بأن الرسول الذى بعثه النبى إليه قد أخطأ فغفر له النبى ذلك . .

مواقف كثيرة لخالد . . كان يراها عمر . . وكان ينهاه عنها، وعندما تولى الخلافة . . كان من المنطق . . ومن الطبيعى أن يعزله عن القيادة وهو فى أوج انتصاراته . . ومع ذلك لم يكل عليه الاتهامات . .

إنه قدر له مواقفه وبطولاته فى حروب الفرس والروم . .

وقدر له بلاءه الحسن فى سبيل اللَّه . .

وقدر له مواقفه الجسورة وهو يواجه قوى الروم . . وقوى الفرس فيحقق انتصارات مذهلة . . لا يكاد يصدقها عقل . . وهو يقطع الفيافى الموحشة . . ويخترق الصحراء الجرداء . . ليصل بسرعة لا يتوقعها أحد . . ويفاجئ العدو . . ويهزمه هزيمة منكرة . . قدرة . . وبطولة رائعة . . قدرها عمر . . ووضعها فى مكانها الصحيح . . ومع ذلك فعندما عزله . . أرسل إلى مختلف ولاته يبرئ ساحة خالد . . وأنه لم يعزله لسخطه عليه أو لأنه قد اقترف خيانة . . ولكن خوف افتتان المسلمين به . . لأن النصر من عند اللَّه . .

لقد أمر عمر بعزل خالد بعد انتصاره العظيم فى معركة اليرموك على الروم . . وتقبل خالد هذا بصدر رحب . . ففى المواقف العظيمة تعرف هامات الرجال . .

لقد قال عندما علم بعزله:

- الحمد اللّه الذى قضى على أبى بكر بالموت . . وكان أحب إلى من عمر . . والحمد للّه الذى ولى عمر . . وكان أبغض إلى من أبى بكر وألزمنى حبه.

قد عمل خالد تحت إمرة أبى عبيدة بن الجراح جندياً عادياً . . ومرت الأيام . . وقضية خالد تشغل الأذهان . . وإن كان عمر لم يذكر خالداً بعد ذلك إلا بخير . . حتى إذا ما تناهى إلى سمعه خبر وفاته . . نكس رأسه حزيناً وأخذ يكثر الترحم عليه ثم قال:

- كان واللّه سداداً لنحور العدو . . ميمون النقيبة.

ورغم أن عمر كان يكره الندب وينهاه . . إلا أنه عندما سمع العويل على خالد من بنات عمه . . تركهن وشأنهن قائلاً:

- دعهن يبكين على أبى سليمان . . لم يكن نقع أو لقلقة . . على مثله تبكى البواكى!.

لقد مات خالد بن الوليد على فراشه . . وهو الذى خاض مئات المعارك فى الجاهلية والإسلام . . حتى أنه لم يبق فى جسده مكان لطعنة سيف أو رمح . . حتى روى عنه قوله:

- فى جسمى مائة طعنة أو زهاؤها . . وهأنذا أموت على فراشى مثل البعير.

إن خالـدا العظيم . . الذى قدم كل هذا العطاء لـلإسلام . . ومات وكل ما يملكه من حطام الدنيا فرسه وغلامه وسلاحه . .

* * *

صورة مشرفة لشجاعة القلب والعقل . . لتلميذين من مدرسة الرسول الكريم محمد بن عبدالله عليه الصلاة والسلام . . وكيف يكون الصالح العام فوق أى اعتبار . .

ومن هنا . . جعلت مبادئ الإسلام خير قدوة للناس . .

لذا لم يكن غريباً أن يـنتشر الإسلاك بسرعـة البرق . . فيطوى شعوبـاً ودولاً تحت لوائه . . وينطلق حاملاً نور الإسلام ومـبادئه إلى أماكن لم تكن تخطر على البال . .

* * *

خلافة عمر

مدة قصيرة تلك التى قضاها الصديق خليفة للمسلمين . . سنتان وثلاثة شهور . . أنجز خلالها إنجازات هائلة . . فقضى على الردة . . وعلى مدعى النبوة . . ومانعى الزكاة . . وأمر الجيوش الإسلامية أن تتوجه صوب العراق والشام . . وتحققت إنجازات هائلة . . بعد أن وحد الجبهة الداخلية . . وأعاد للإسلام مكانته ومهابته فى النفوس . .

وفى أحد الأيام أصيب بالحمى عقب الاستحمام . . وتثاقل عليه المرض . . وعرف أنها النهاية وتتابعت الأحداث فى مخيلة الصديق . . إنه شاهد كيف دارت الأحداث عقب وفاة الرسول وما حدث فى السقيفة . . أنه لا يريد أن يكرر الأحداث . . وتنشب الفتن على من يتولى الخلافة . . واستقر رأيه على أن يخلفه عمر بن الخطاب . . وكان يعتقد أن عمر إذا كان شديداً فى أيام النبى وأيامه . . فلأنه كان يجد من اللين من جانب النبى عليه الصلاة والسلام ومن جانبه . . ما يعيده إلى الصواب . . أما إذا تولى هو أمور المسلمين . . فسوف يلين جانبه . . إنه يعرف عمر حق المعرفة . . يعرف أن وراء هذا المظهر الجاد . . قلباً يذوب رقة وحناناً . . وخشية وخوفاً من اللّه . .

ويعـرف أن وراء شدة عـمـر . . رحمـة ورأفـة بالمؤمنين . . ويعرف أن عمر له من القوة والحكمة والسياسة . . ما يجعله كفؤاً لتـولى هذا المنصب الخطيـر . . بل إن أبا بكـر فى مرضـه كـان يستشير كبار الصحابة فى هذا الأمر . . وقد أجمعوا على أن عمر هو أنسب إنسان لهذه المهمة الصعبة لولا شدته . .

لقد عـرض الأمر على عثمـان بن عفان . . وعبـدالرحمن بن عوف . . وغيرهما من كبـار الصحابة . . فلم يعترض أحد منهم إلا أنه كان لهم تحفظ واحد . . وهو خوفهم من شدة عمر . .

قال عبدالرحمن بن عوف:

- يا خليفـة رسول اللَّه . . هو والله أفضل من رأيك فـيه من رجل . . ولكن فيه غلظة . .

ورد أبو بكر:

- ذلك لأنه يرانى رقـيقـاً . . ولو أنه أفضى الأمـر إليه لتـرك كثيراً مما هو عليه .

وقد رمقته فرأيتنى إذا غضبت على رجل فى الشئ أرانى الرضا عنه . . وإذا لنت له أرانى الشدة عليه . . لا تذكر يا أبا محمد مما قلت لك شيئاً . .

وكان رأى عثمان بن عفان رضى اللَّه عنه فى عمر:

- اللهم علمي به أن سريرته خير من علانيته . . وأن ليس فينا مثله.

وطلب أبو بكر من عثمان أن يكتب وصيته . . بأن يتولى عمر الخلافة من بعده . .

وأملى عليه:

« بسم اللّه الرحمن الرحيم . . هذا ما عهد به أبو بكر بن أبي قحافة إلى المسلمين . . أما بعد . .

وهنا أغمي على الصديق . . وخشي عثمان أن يموت دون أن يتم الوصية . . فيحدث ما لا يحمد عقباه . . وهو يعرف ماذا يقصد أبو بكر . . فأكمل الوصية:

فإني قد استخلفت عليكم عمر بن الخطاب . . ولم آلكم خير منه».

وأفاق أبو بكر . . وعرف ما كتب عثمان . . فأثنى عليه قائلاً له:

- جزاك اللّه خير عن الإسلام وأهله.

وعلم بذلك عبدالرحمن بن عوف . . وكان يخشى غلظة عمر . . وعرف أن أبا بكر قد أتم وصيته . . فظهر ذلك على وجهه . . ولم يخف ذلك على فراسة الصديق . . فقال لعبد الرحمن بن عوف:

- إنى وليت أمركم خيركم فى نفسى . . فكلكم ورم أنفه من ذلك . . يريد أن يكون الأمـر دونه . . ورأيتم الدنيـا قد أقـبلت ولم تقبـل . . وهى ثقيلة حتى تـتخذوا سـتور الحريـر، ونضائد الديباج . . وتألموا الاضطجـاع على الصوف . . كمـا يألم أحدكم أن ينام على حسك السعدان (الشوك) .

ورحل الصديق إلى أكرم رحاب . .

إلى رحاب اللّه بعـد أن أوصى أن يدفن بجوار حبـيبه محـمد عليه الصلاة والسلام . .

وكانت آخر كلماته فى الدنيا:

« رب توفنى مسلماً والحقنى بالصالحين» . .

وعلى قبره الطاهر . . بكت ابنته أم المؤمنين عائشة ما طاب لها البكاء . . وقالت فيه كلمات كأنها تلخص بها حياة الصديق.

- نضر اللّه يا أبت وجـهك . . وشكر لك صالح سـعيك . . فقد كنت للدنيا مذلاً . . بإدبارك عنهـا . . وللأخرة معزاً باقبالك عليها . . ولئن كان أعظـم المصائب بعد رسول اللّه ﷺ رزؤك . . وأكبـر الأحداث بعده فـقدك ∴ إن كتـاب اللّه عز وجل ليـعدنا بالصبـر عنك حسن العوض منك . . وأنا متنجـزة من اللّه وعده فيك بالصبر عنك . . ومستعينة كثرة الاستغفار فسلم اللّه عليك . . توديع غير قالية لحياتك . . ولا زارية على القضاء فيك . .

رحل ثانى اثنين إذ هما فى الغار . .

وكلمات الإمام علىّ بن أبى طالب التى رثاه بها . . رغم أنها موجزة . . تعطى صورة ملخصة وحية عن هذا الخليفة العظيم:

- رحمك اللّه يا أبا بكر . . كنت أول الناس إسلاماً . . وأخلصهم إيماناً . . وأشدهم يقيناً . . وأقربهم إلى رسول اللّه . . وأشبههم به خلقا وخلقاً . . وهدياً وسمتاً . . صدقت رسول اللّه حين كذبه الناس . . وواسيته حين بخلوا . . . كنت كما قال الرسول فى حقك: ضعيفاً فى بدنك . . قوياً فى دينك . . متواضعاً فى نفسك . فلا حرمنا اللّه أجرك . . ولا أضلنا بعدك .

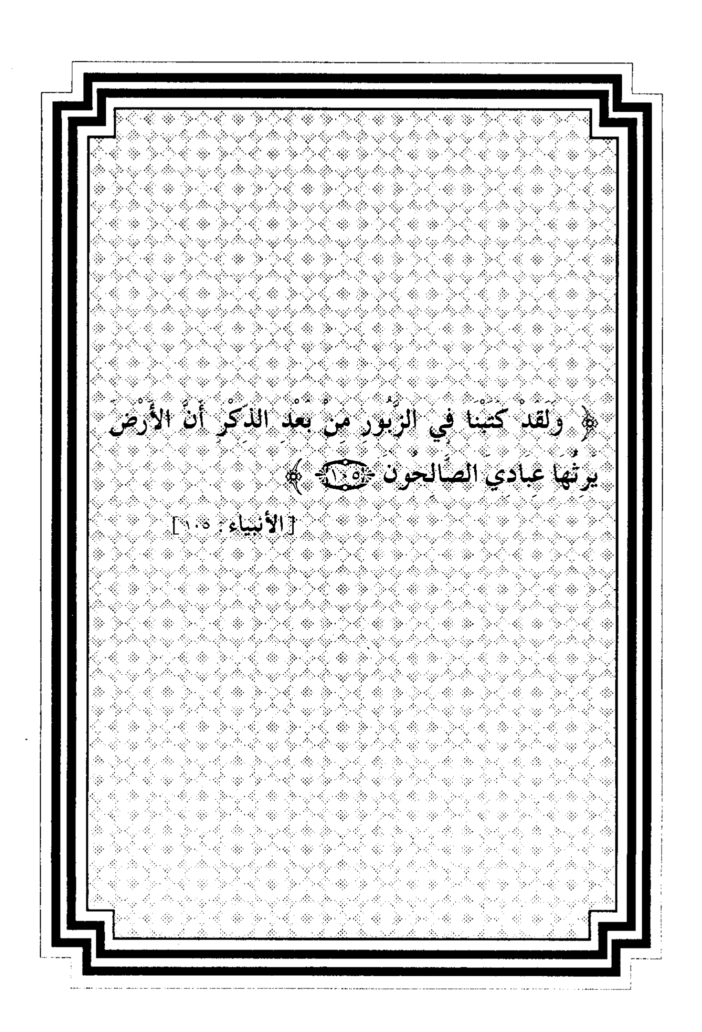
وبدأت خلافة عمر . .

خلافة امتدت عشر سنوات وستة أشهر . . (١٣-٢٣ هـ)

تحقق خلالها ما يشبه المعجزات . .

* * *





﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴿١٠٥﴾ ﴾

[الأنبياء: ١٠٥]



عمر فى بداية حكمه

رحل الصديق إلى رحاب اللَّه . . بعد أن قضى فى الخلافة سنتين وعدة شهور . . حقق من خلالها للإسلام الكثير . . وكانت أيامه امتداداً لأيام الرسول ﷺ.

وبتولية عمر الخلافة . . ابتدأ عهد جديد . .

والمهمة أمامه غاية فى الصعوبة . .

والحياة تحتاج إلى قائد وسياسى وفقيه . .

فالجيوش الإسلامية تخوض معارك هائلة فى الشام والعراق . . ولم تثبت أقدامها بعد وهى تجابه قوى الفرس التى كان يخشى بأسها العرب أشد خشية . .

كما أن الجيوش الإسلامية أيضاً تواجه قوى الروم الذين طالما هزموا الفرس أنفسهم . . فالحاجة إلى قائد يعطى تصوره ونصائحه للجيوش المقاتلة . . أمر هام وضرورى.

والحياة أيضاً فى حاجة إلى سياسى خبير بأمور السياسة . . فى دولة تنشر سلطانها على الأمم حولها . . فهناك متغيرات جديدة فى أساليب الحياة لابد أن يجد لها الخليفة الجديد حلولا . .

وأيضـاً طبيـعة الحـياة تفـرض حاكـماً وعـالماً وملماً بأصـول العقيدة . .

وإذا كان النبى - لأمـر يعلمه اللّه- لم يفسـر القرآن للناس . . فمن هنا كـان لابد من الاجتهـاد . . وكان عمر نفـسه فقيـهاً . . وأديبـاً . . وعالماً . . وسـوف ترى هنا كيـف جعلت منه تعـاليم الإسلام هـذا الإنسان الذى ترك فكراً عـريضا ممدوداً خـالداً على الزمان . .

وعمر قـد أصبح خليفة . . لـم يعد مجرد سيـف من سيوف اللّه . . يشهـره النبى فى وجه أعداء الإسلام أو يغـمده -على حد تعبـيره- أو كمـا كان كذلك فى أيام أبى بكـر . . ولكنه هنا وقد أصبـحت له الكلمة العليـا . . وأصبح حاكمـاً على المسلمين . . تغيرت شـخصية عمر تمامـاً . . فما دام قد اختـفى من الحياة من يقف أمام شدته . . فهـو هنا القاضى والمتهم . . هو الحاكم وهو الجالس على كـرسى الاتهام . . ومن هنا كانت قسـوة عمر على نفسه قسوة شديدة لم نشهد مثلها فى التاريخ الإنسانى . . إنه ينشد العدل الإسلامى فى أكمل وجه . . وأتم صورة . . وإنه يحاسب حسـاباً عسيـراً على من يتهاون فى حق من حـقوق اللّه . . وهو على نفسه أشد حساباً . .

هنا تظهـر لنا شخـصيـة عمـر . . العظيم . . بكل مقـاييس

العظمة . . كما سوف نرى ذلك فى علاقته مع نفسه . . وفى علاقته مع الناس . . وفى حرصه الشديد على أموال المسلمين فى كل أقطار العالم . . سوف نرى نماذج رائعة لإنسان عظيم . . رفعته مبادئ الإسلام العظيمة إلى قمة شاهقة . . بالغة السمو والعظمة . .

ابتدأ عمر حكمه . . وهو يعلم أن هناك من الناس من تخشى شدته . . وفى نفس الوقت يعلم أن هناك بعض الحاقدين الذين يرون فيما بينهم وبين أنفسهم أنه وصل إلى مكانة يحسدونه عليها كسفيان بن حرب . . الذى أنكر الخلافة على أبى بكر حقداً وحسداً . . لأنه كان يتخيل ذلك ملكاً لا خلافة . . وسلطاناً وجاهاً . . لا مركزاً لخدمة الإسلام والمسلمين . .

عمر يعلم ذلك . .

وقطع فكر طويلا فى كل هذه الأمور . .

فهو يرى أن المثنى الشيبانى . . قد جاء من العراق بطلب النجدة . . يطلب جيشاً من خليفة رسول اللَّه ليدخل مع الفرس معركة حاسمة . . وخاصة أن الانقسامات الداخلية تفشت فى جبهة فارس الداخلية . . وهو قد عرض الأمر على أبى بكر . . ولكن الصديق كان فى مرحلة مرضه الأخير . . فأوصى عمر بأهمية الإسراع فى تحقيق مطالب المثنى بن حارثة الشيبانى . .

وعمر يعلم أيضاً أن هناك الجيوش الإسلامية فى الشام سوف تدخل فى معارك فاصلة مع الروم. . أى أن عليه أن يجهز جيشاً ضخماً من المسلمين استعداداً لمعارك الغد الفاصلة. .

وهو يعلم أن الناس يتهيبون مواجهة الفرس. . فطالما سمعوا بشدة بأسهم. . وقوة ما يستخدمونه من عتاد وسلاح وفيلة. .

أمور كثيرة ألحت على ذهن ابن الخطاب. .

إن عمر يعرف أن هناك عدة مشاكل لا بد أن ينتهى منها. .

لابد أن يقنع الناس بأنه ليس بالصورة التى يتصورونها. . فان كان شديداً ففى الحق وحده. .

وكان عليه أيضاً أن يقنع الناس بأن يتوجهوا مع المثنى بن حارثة إلي العراق. . وخاصة أن أبا بكر أوصاه بذلك فى أيامه الأخيرة. . وكانت هذه المهمة شاقة نظراً لما ترسب فى أعماق الناس منذ الجاهلية عن صولة كل من الفرس والروم. .

وكان أمامه أيضاً تصورات لما ينبغى أن تسير عليه الحياة فى عهده . . لا من ناحية القانون. . فالقانون الذى لابد أن يسود هو شريعة اللَّه. . كتاب اللَّه . . وسنه رسوله. . ولكن تصوراته لما ينبغى أن يكون عليه الحاكم قبل رعيته . . وخاصة أن هناك تغيرات فى الحياة الاجتماعية والسياسية . . فهناك الفتوحات . .

وهناك جنود محاربون . . وهناك نتيجة لذلك شعوب سوف تضم إلى قافلة الإسلام . . وسوف يولى عليها حكاماً . . و . . أمور كثيرة سوف يجابها ابن الخطاب . .

إن ابن الخطاب بجانب حكمه . . ما زالت أصداء كلمات الصديق ترن فى أذنيه :

- اسمع يا عمر ما أقول لك ثم اعمل به . . أنى لأرجو أن أموت من يومى هذا . . فإن أنا مت فلا تمسين حتى تندب الناس مع المثنى . . وإن تأخرت إلى الليل فلا تصبحن حتى تندب الناس مع المثنى . . ولا يشغلنكم مصيبة وإن عظمت على أمر دينكم ووصية ربكم . . وقد رأيتنى متوفى رسول اللّه ﷺ . . وما صنعت ولم يصب الخلق بمثله . . وباللّه لو أنى عن أمر اللّه وأمر رسولنا لخذلنا ولعاقبنا فاضطرمت المدينة ناراً . . وإن فتح اللّه على أمراء الشام فأردد أصحاب خالد إلى العراق فإنهم أهله وولاة أمره وحده وأهل الفراءة بهم والجراءة عليهم . .

صور كثيرة تمر فى ذهن عمر . .

لقد حقق خالد بن الوليد انتصارات كبيرة فى العراق . . وقد اتجه بناء على أوامر الصديق إلى الشام لمواجهة جيش الروم . . إن خالدا سار بجيش تعداده تسعة آلاف وخمسمائة رجل . . واقتحم صحراء الشام . . ووصل إلى اليرموك . . حيث كانت جيوش

المسلمين قد توحدت بناء على أوامر الصديق.. تلك الجيوش التى كان من المفروض أن تتوجه كل منها إلى جهة لفتحها فى الشام.. يمضى أبو سفيان إلى دمشق .. وأبو عبيدة بن الجراح لحمص.. وعمر بن العاص لفلسطين.. وجيش آخر بقيادة خالد بن سعيد ابن العاص لمساعدة هذه الجيوش .. وكان عدد هذه الجيوش أربعة وعشرين ألفاً بينما كان عدد جيش الروم مائة وعشرين ألفاً..

وكان مجيئ خالد إلى الجيوش العربية فى اليرموك له أثره الكبير فى رفع الروح المعنوية .. فخالد سيف اللّه المسلول .. وعبقرية فذة فى القتال وإدارة رحى المعارك.. لقد وحد خالد الجيوش العربية تحت قيادته .. وخاطبهم بقوله:

- إن هذا اليوم لو رددناهم إلى خندقهم فلا نزال نردهم .. وإن هزمونا لا نفلح بعدها أبداً.. فتعالوا فلنتعاور الأمارة .. فليكن عليها بعضنا اليوم.. والآخر بعد غد.. حتى يتأمر كلكم.. ودعونى اليوم إليكم..

ونظم خالد جيشه بحيث يكون يزيد بن أبى سفيان على الميسرة.. وعلى الميمنة عمرو بن العاص.. وعلى القلب أبو عبيدة بن الجراح..

وخرج من بين صفوف الروم أحد امرائهم واسمه (جرجة) واقترب من خالد.. وسأله عن سر تفوقه فى القتال.. وعن

الإسلام . . وأجاب خالد على أسئلته . . فأسلم ليكون واحداً من المسلمين . . له ما لهم وعليه ما عليهم . .

ودارت المعركة . . طويلة ورهيبة . . وإذا بالبريد يأتى برسالة عمر بن الخطاب إلى أبى عبيدة . . لقد ولى أبو عبيدة قيادة جيوش المسلمين بدلاً من خالد بن الوليد وقد كتم أبو عبيدة الخبر حتى انتهت المعركة ثم أخبر خالد . . الذى لم يزد عن قوله:

- الحمد الله الذى قضى على أبو بكر بالموت وكان أحب على من عمر . . والحمد للَّه الذى ولى عمر وكان أبغض إلى من أبى بكر وألزمنى حبه . .

منتهى الطاعة . . هذا القائد الذى كان اسمه كالعاصفة يهز كيان الأعداء من الأعماق . . يتلقى أمر عزله ببساطة . . ويحارب كجندى عادى . . أليس تلميذاً فى مدرسة الرسول العظيم محمد بن عبداللَّه . . ! .

لقد امتثل للرسالة التى بعثها عمر إلى أبى عبيدة . . فإذا نظرنا إلى هذا الخطاب . . وجدنا فيه حزم الخليفة الجديد . . وقوة شخصيته . . وحرصه على المسلمين . . إنه يقول فى هذا الخطاب الذى أرسله إلى أبى عبيدة بن الجراح . .

- أوصيك بتقوى اللَّه الذى يبقى ويفنى ما سواه . . الذى هدانا من الضلالة وأخرجنا من الظلمات إلى النور . . وقد

استعملتك على جند خالد بن الوليد فقم بأمرهم الذى يحق عليك.. لا تقدم المسلمين إلى هلكة رجاء غنيمة.. ولا تنزلهم منزلاً قبل أن تستزيده لهم وتعلم كيف مأتاه.. ولا تبعث سرية إلا فى كثف من الناس.. وإياك وإلقاء المسلمين فى الهلكة وقد أبلاك اللَّه بى وأبلانى بك .. فغمض بصرك عن الدنيا.. وأله قلبها عنها وإياك أن تهلكك كما أهلكت من قبلك .. فقد رأيت مصارعهم.

* * *

﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١١١﴾ ﴾

[التوبة : ١١١]



الفتوحات الإسلامية

لقد بدأت فى عهد عمر بن الخطاب بناء الإمبراطورية الإسلامية. . وتدعيم هذه الإمبراطورية . . وإدارة شئونها السياسية والاجتماعية والاقتصادية . .

ولم يكن يدور بخلد أحد أنه من الممكن القضاء على أقوى امبراطوريتين عرفهما التاريخ . . وهما إمبراطورية الفرس والرومان بهذه السرعة المذهلة وبتلك السهولة . .

وعندما نقول بهذه السرعة المذهلة . . وبتلك السهولة، فليس معنى ذاك أن المسلمين لم يلاقوا مقاومة فى حروبهم ضد الفرس والرومان. . فالحقيقة أنهم جاهدوا جهاداً عظيماً . . فمات آلاف الشهداء فى هذه المعارك. . وجرح آلاف من المسلمين الأبطال وهم ينشرون لواء الإسلام . . أنهم انتصروا بعد معارك ضارية ولكن قوة الإيمان كانت أكبر دافع لهم إلى النصر . . ولكن عندما نقول السهولة. . فنعنى أنه لم يكن من المتصور أن ينهار الروم بهذه السرعة. . وأن يهزموا تلك الهزائم المتتالية . . رغم أن عدد جنودهم أضعاف أضعاف عدد جنود المسلمين . . ولكن الدولة الرومانية

كـانت قد تهـرأت وشـاخت. . وكان سـوس التـرف قد نخـر فى حضارتهـا. . كما أن الظلم الذى كانت تفرضـه على رعاياها عجل بنهايتها. . فلم يتباك أحد عليها. .

ونفس الشئ حدث بالنسـبة لدولة الفرس . . حـيث كثرت فيـها الانقسامـات حول العرش. . وكثـرت فيها المنازعـات. . بجانب ما تركـتـه الحـروب الطـويلة بينهـا وبين الروم مـن آثار مـدمـرة على اقتصادها. . وعلى سير الحياة فيها. . من هنا لم تستطع كلتا الدولتين أن تصمدا أمـام قوة فتية جديدة. . تؤثر الموت على الحـياة. . وتبيع الدنيا كلها فى سبيل رضاء اللّه . . والشهادة عند أبنائها أعلى مراتب الجهاد. . فلا حرص على دنيا زئلة. .

ولا تعلق بمال يذهب ويجئ. .

وما عند اللّه خير مما عند جميع البشر من كنوز ودهب. .

فكانت معاركهم هى الهول بنفسه. .

ولو وقفنا عند مشاهد من هـذه المعارك التى دارت رحاها لوجدنا ألواناً من البطولات والمعـجزات يعـجز أى خـيال عن تصـورها. . وبالتالى يعـجز القلم عن وصفـها. . بطولات لا تخطر على بال. . أنجزهـا هؤلاء الذين لم يكونوا يعرفـون فى جاهليـتهم سـوى رحلة الشتاء والصيف. . وإذ بهم اليوم رسل حضـارة رائعة مشرقة. . بعد

أن صنع منهم الإسلام ومبادئه شيئاً جديداً رائعاً . . وشخصيات حفرت لنفسها مكاناً بين الخالدين . .

لنعد إلى بدايات عهد عمر . . وكيف أطلق الصيحة للجهاد . . إنه أخذ يطلب من الناس الذهاب مع المثنى بن حارثة الشيبانى إلى العراق . . ولكن الناس كانت تخشى الروم والفرس . . فقد كانوا يسمعون عنهم وعن جيوشهم الأساطير . . بل إنهم رأوا سلطانهم عندما كانوا يسافرون للتجارة إلى الشام . .

ووقف المثنى بن حارثة الشيبانى يشرح للناس كيف تمكن من هزيمة الفرس . . وأنه عدو يمكن قهره . . وأن الانقسامات الداخلية فى بلاد فارس فرصة ذهبية للقضاء على جيوشهم . . ولكن هذه الكلمات وإن كانت قد ألهبت حماسة بعض الناس . . إلا أنهم لم يكونوا قد دخلوا المعمعة بعد مع الفرس والروم . . مما حدا بعمر بن الخطاب أن يلقى خطاباً طويلاً يدعو الناس إلى الجهاد فى سبيل اللَّه . . فقد صعد المنبر . . والناس مجتمعون تشرئب أعناقهم . . لسماع ما يقول أمير المؤمنين عمر . . إنه بحديثه هذا يدخل أعماق أنفسهم . .

لطالما فكر عمر عن سبب إحجام المسلمين عن الذهاب مع المثنى؟ . . ترى هل خافوا الفرس؟ . . أم خافوا شدة عمر؟ . . أم

كلا الأمرين معـاً. . إنه يخطب الناس . . بأسلوبه الشيق الممتع . . فقد كان عمر أديباً ومتذوقاً للشعر . . ومحباً للحكمة :

- بلغنى أن الناس هابوا شدتى . . وخافوا غلظتى . . وقالوا : قد كان عمـر يشتد علينا ورسول اللّه بين أظهرنـا . . ثم اشتد علينا وأبو بكر والينا دونه . . فكيف وقـد صارت الأمور إليـه؟؟ ومن قال ذلك فقد صدق أنى كنت مع رسول اللّه . . فكنت عبده وخادمه . . وكان من لا يبلغ أحد صفـته من اللين والرحمة . . وكان - كـما قال اللّه- بالمؤمنين رؤوفاً رحيماً فكنت بين يديه سيفاً مسلولاً . حتى يغمدنى أو يدعنى فأمضى . . فلم أزل مع رسول اللّه حتى توفاه اللّه ، وهو عنى راض . . والحمد للّه على ذلك كثيراً . . وأنا به أسعد . .

ثم ولى أمر المسلمين أبو بكر . . فكان من لا تنكرون دعته وكرمه ولينه ، فكنت خـادمه وعونه . . أخلط شـدتى بلينه ، فأكـون سيـفاً مسلولاً حتى يغمدنى أو يدعنى فأمضى . . فلم أزل معه كذلك حتى قبضه اللّه عز وجل وهو راض عنى . . فالحمد للّه على ذلك كثيراً . . وأنا به أسعد . .

ثم إنى وليت أمـوركم أيهـا الناس فـاعلموا أن تلـك الشدة قـد ضـعـــفت ، ولكنهـــا إنما تكون على أهل الـظلم والتـعـــدى على المسلمين . . فأما أهل السلامة والدين والقصد فأنا ألين منهم لهم من

بعضهم لبعض . . ولست أدعو أحد يظلم أحداً . . أو يتعدى عليه . . حتى أضع عليه خده على الأرض . . وأضع قدمي على الخد الآخر . . حتى يذعن للحق . . وأني بعد شدتي تلك أضع خدي الأرض لأهل الكفاف والعفاف . .

لكم على أيها الناس خصال أذكرها لكم فخذوني بها:

. لكم على ألا أجتبي شيئاً من خراجكم . . ولا ما أفاء اللّه عليكم إلا من وجهه، ولكم على إذا وقع في يدي ألا يخرج مني إلا وهو في حقه، ولكم على أن أزيد عطاياكم وأرزاقكم إن شاء اللّه تعالى، وأسد ثغوركم ولكم على ألا ألقيكم في المهالك . . ولا أحجركم في ثغوركم ولا أجمعكم في مواطن القتال، ولا أحبسكم عن العودة إلى أهلكم، وإذا غبتم في البعوث فأنا أبو العيال . . فاتقوا اللّه عباد اللّه . . وأعينوني على أنفسكم بكفها عني . . وأعينوني على نفسي بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . . وإحضاري النصيحة فيما ولاني اللّه من أمركم . . أقول قولي هذا واستغفر اللّه لي ولكم.

هذه خطبة بليغة . . قوية العبارة . . جميلة الأسلوب . . عظيمة المعنى . . إنه يرسم بها خطته في المستقبل . . فهو يرجو الناس أن يتحلوا بالمعروف والنهي عن المنكر . . وتقوى اللّه . . وأنه أصبح بعد موت الرسول وموت الصديق أقل شدة . . لأن صاحبيه كان يخففان

فيه هذا الجانب . . أما وقد أصبح قراره هو . . فلا بد أن يأخذ نفسه بالشدة فيلين جناحه للمؤمنين . . كما أنه وعدهم بأن يأخذوا حقهم فى مال اللّه . .

إنها خطة عمل رائعة من عمر . .

ومع ذلك فلم يجد الحماس من الناس للذهاب مع المثنى . .

حتى عاد عمر فقال لهم :

- إن الحجاز ليس لكم بدار إلا على النجعة (أى مكان لا يصلح إلا لطلب المرعى) ولا يقوى عليه أهله إلا بذلك . . . سيروا فى الأرض التى وعدكم اللّه فى الكتاب أن يورثكموها . . فإنه قال : ﴿ **لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ** ﴾ [التوبة : ٣٣] . . واللّه مظهر دينه . . ومعز ناصره . . ومول أهله مواريث الأمم . .

أين عباد اللّه الصالحين؟ . .

ولا شك أن عمر قد شغلته أمور كثيرة فى بداية توليه الخلافة . . إن هناك من الناس من يتهيب حكمه . . وقد استطاع أن يتغلب على هذه المشكلة عندما خطب الناس . . وأوضح لهم أنه شديد على الظالمين . . رؤوف بالناس . . وأنه قد مضى هذا الزمن الذى يشتد فيه على الناس . . لأن ذلك كله أيام الرسول . . وأيام خليفته أبو بكر . . وكان كل منهما يردانه إلى الطريق المعتدل . . أما وقد آلت إليه الأمور

فـإنه لا يشـتد إلا عـلى من تسـول له نفسـه أن ينحـرف عن جـادة الصواب . .

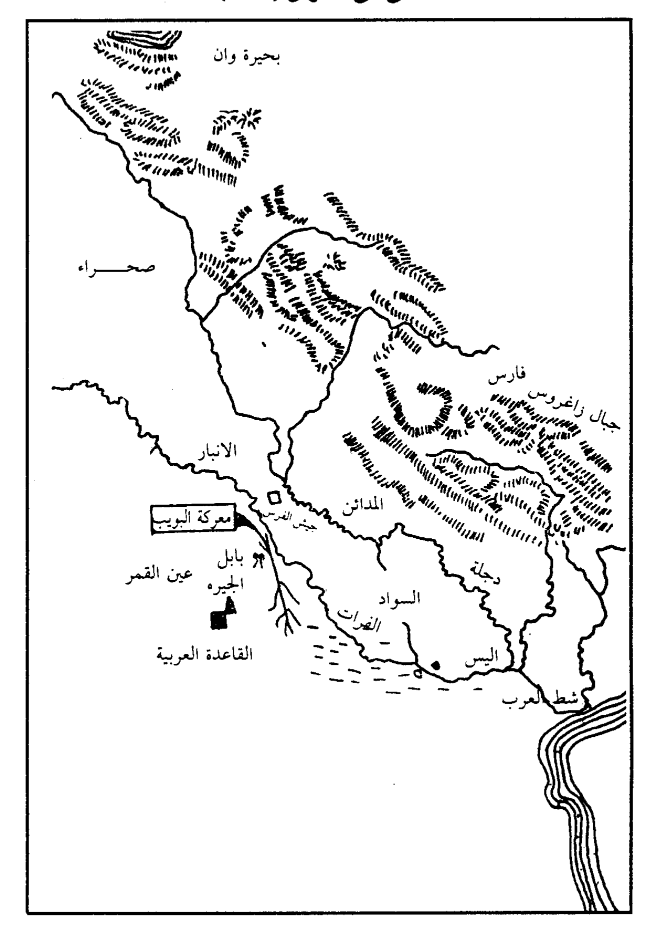
وكان يشغله أيضاً أمر خالد بن الوليد . . وقد فرغ منه بأن ولى أبا عبيدة بن الجراح قيادة الجيوش فى الشام . . لأنه كان من المستحيل أن يتعاون عمر مع خالد . . وعمر كـما رأينا يجد فى خالد رغم عبقريته العسكرية بعض الـعيوب التى أخذهـا عليه ولم يغفـرها له . . لقتله مالك بن نويـرة وتزوجه من زوجتـه . . كما أخـذ عليه تسـرعه فى القتال عند الدخول إلى مكة يوم الفتح . .

وشغله أكثر أنه أخذ يدعو الناس ثلاثة أيام ليخرج الناس مع المثنى ابن حارثة الشيـبانى . . فما كان من عمر إلا أن أصـدر أمراً بأن يعود سـبايا حـروب الردة إلى ذويهم . . وقـد قابل الناس أول الأمـر هذا الاتجاه العمرى بالاستغراب . . ولكن القبائل التى عادت إلى الإسلام فرحت به أشـد ما يكون الفرح . . . وابـتدأت تلتف حول عـمر بن الخطاب . . كما أن عـمر استجاب لرأى المثنى به حارثة الشـيبانى بأن يأخذ إلى العـراق معه من يريد الخروج مـعه لقتال الروم من القـبائل التى كانت قد ارتدت عن الإسلام وعـادت إليه بعد حروب الردة . . ففى هذا تكفـير لهم عما فـعلوه من جهة . . كمـا أن غنائم الحروب سوف تستـهويهم . . وبذلك يكثر عدد الجـيش الإسلامى . . ووافق عمر على ذلك . .

وعندما صعد عمر بن الخطاب المنبر فى اليوم الرابع من خلافته . . وطلب من الناس الخروج مع المثنى بن حارثة . . وسمع الناس حديثاً للمثنى يحدثهم فيه عن الفرس . . وعن اختلافهم فى بلادهم . . وكيف أنزل المسلمون بهم الخسائر فى العراق . . ابتدأ الناس يتشجعون . . فقد كانوا يخشون صولة الفرس . . الذين طالما سمعوا عن جيوشهم المدربة حكايات مثيرة . . وتقدم أبو عبيدة بن مسعود الثقفى للذهاب إلى العراق . . وتتابع الناس على التطوع للجهاد فى سبيل اللّه . . حتى وصل عدد المتطوعين أكثر من ألف رجل . . هنا تهلل وجه عمر . . وأمر المثنى أن يعود إلى جيشه بالعراق . . وأنه سوف يرسل إليه العون عندما يتهيأ الجيش الجديد لذلك . . وقرر عمر أن يولى قيادة الجيش الذاهب لمجابهة الروم فى العراق إلى أبى عبيدة نفسه . . لأنه أول من تطوع فى سبيل اللّه . .

وكان من المشكلات التى واجهت عمر أيضاً فى الأيام الأولى فى الخلافة أن يجلى نصارى نجران المتاخمين لليمن إلى مكان آخر . . لأنه لا يريد أن يكون هناك دينان متصارعان فى شبه الجزيرة العربية . . على ألا يجبر واحداً منهم على ترك دينه . . بل طلب إلى يعلى بن أبيه . . الذى وكله بهذه المهمة أن يتيح لهم الإقامة فى مكان يحسون فيه بالأمن والأمان . . كما أمره ألا يمارس عليهم أى ضغط من الضغوط . . ولا يعرضهم للاضطهاد . .

المثنى فى العراق (٦٣٤)



وبعد أن أصبحت الجزيرة العربيـة موحدة. . يحكمها حاكم قوى عادل. . إلا أن هناك من الأمور الجسام ما كـانت تشد تفكير عمر. . إنه يفكر فى الجـيـوش الإسـلاميـة التى تواجـه الروم فى الشـام. . والجيش الذى سيذهب لمساعدة المثنى بن حارثة فى العراق. . وهناك بعد ذلك واجب هام . . بل فـى غاية الأهميـة . . وهى كيف تحكم هذه الامبراطورية التى تأخذ طريقهـا نحو التشكيل. . وكيف يعامل الناس. . من المهـاجرين والأنصـار. . كـيف يوفر لهم أرزاقـهـم. . ليعيـشوا حياة كريمة. . فى ظل هذا المجتـمع الجديد الذى أخذ على كاهله نشر الحضارة الإسلامية فى مختلف أرجاء العالم.؟!

* * *

الطريق إلى العراق

خرج أبو عبيدة من المدينة بعد شهر من تكوين الجيش بعد أن أتم استعداده . . وقد بلغ الجيش أربعة آلاف مقاتل . . انضم إليه عدد كبير من المسلمين وهو فى الطريق إلى العراق حتى بلغ قرابة عشرة آلاف مقاتل . . حيث تقابل مع المثنى بن حارثة الذى كان قد انسحب من الحيرة إلى خفان . .

وكان المثنى بن حارثة قائداً محنكاً . . ويعرف الكثير من أمور فارس . . ويعرف أن الانقسامات على أشدها داخل بلادهم . . والصراع على السلطة بلغ ذروته . . وأنه لا يمكث على العرش ملك إلا لفترة قصيرة ثم يذهب ضحية الأهواء والأحقاد وهواة السلطة . . وأن هذه فرصة ذهبية للمسلمين أن ينقضوا عليهم وينتزعوا منهم العراق . .

وكانت أول معركة من المعارك التى تركت بصماتها على التاريخ هى معركة الجسر . . تلك المعركة التى أبلى فيها المسلمون بلاءً حسناً . . وجاهدوا جهاداً مستميتاً . . وقد خسر المسلمون المعركة لعدة عوامل . . من أهمها :

أن أبا عبيدة وأن كان مقاتلاً شريفاً شجاعاً . . إلا أن خبرته العسكرية كانت محدودة . . يدفعه الإقدام والشجاعة على القتال أكثر من التريث . . وتدبير الأمور . . بل إنه نسى وصية عمر بن الخطاب له أن يستشير الصحابة عندما خاض مع الفرس معركة الجسر الرهيبة . .

إن الفرس ابتدأت تفيق من خلافاتها الداخلية . . بل إن العرب وخطرهم على الإمبراطورية الفارسية جعلهم يحاولون أن يتحدوا لصد هذا الخطر الكبير . . وآلت الأمور إلى (يزدجرد) . . الذى عين رستم الذى ساعده فى الوصول إلى العرش قائداً على جيوشه فى العراق . . وصمم رستم على وضع نهاية للفتح الإسلامى . . وأن يطرد العرب من العراق وأرسل إلى أقاليم العراق يؤلبهم على عدم دفع الجزية إلى العرب . . بل أن يثوروا عليهم حتى يدب الخوف فى قلوب أهل العراق . . ويساعدوا الفرس على استعادتهم لإحكام السيطرة على تلك البلاد . .

ولقد شعر المثنى بن حارثة بهذا الضغط الجارف من قبل الفرس . . بل إنه تحت هذا الضغط اضطر إلى الإنسحاب من الحيرة وعن أرض كثيرة فى العراق إلى أطراف الصحراء . . وظل على أحر من الجمر ينتظر المدد القادم من المدينة بقيادة أبى عبيدة . . وجاء أبو عبيدة . .

وانضم إلى المثنى . . وحقق المسلمون عدداً من الانتصارات فى معارك صغيرة رفعت من روحهم المعنوية . . وكان رستم يعد لمعركة كبير . . فوحد الجيش الفارسى . . وتقابل الجيشان فى شهر أكتوبر من عام٦٣٤م. أمام نهر الفرات . . وكان الجيش الذى أعده رستم بقيادة (بهمن) موحداً . . مستعداً للقتال . . وخير بهمن أبا عبيدة أن يعبر الفرات أو يعبره هو ويقابل المسلمين على الضفة الغربية من النهر . . ولم يستمع أبو عبيدة لنصيحة سليط بن قيس بألا يعبر العرب النهر . . بل عليهم أن يظلوا فى مكانهم . . وأن يعبر لهم الفرس . . حتى يحتمى العرب بالصحراء . . والذين يجيدون من خلالها الكر والفر . . بجانب تجنب عبور هذا الحاجز النائى الذى سوف يستنفد الكثير من جهد العرب . . لم يستمع القائد العربى لهذه النصيحة الغالية . . وتصور أن الشجاعة تقتضى منه أن يعبر النهر . . وأن يهاجم الفرس . . نسى أبو عبيدة النصيحة من عمر . . الذى نصبه لأنه أول من لبى نداء الواجب . . وفضله على سليط بن قيس لأنه كان يسرع إلى الحرب وقال عمر لأبى عبيدة :

– أنك تقدم على أرض المكر والخديعة والخيانة والجبرية . . تقدم على قوم تجرءوا على الشر فعملوه . . وتناسوا الخير فجهلوه . . فانظر كيف تكون واحرز لسانك . . ولا تفشين سرك . . فان صاحب السر ما يضبطه متحصن . . لا يؤتى من وجة يكرهه وإذا لم يضبطه كان بمضيعة . .

نسى أبو عبيدة هذا . . واعتقد أن من الشجاعة أن يواجه الفرس . . ويذيقهم طعم القتال . . وعندما عبر إلى الضفة الشرقية من الفرات . . وجد المسلمون أنفسهم أمام جيش ضخم يتقدمه الفيلة . . ودارت معركة رهيبة لعبت فيها الفيلة دوراً هائلاً وتقدم أبو عبيدة إلى أحد الأفيال . . وضربه على خرطومه . . غير أن الفيل داسه تحت أقدامه . . وتناوب الفرسان الدفاع المستميت أمام جثة القائد الشجاع . . ومات سبعة من ثقيف . . واشتد الهول . . وطلب المثنى وقد رأى أن كفة النصر بجانب الفرس أن يعبر العرب الجسر مرة ثانية . . غير أن أحد المسلمين حاول قطع الجسر حتى يقاتل المسلمون حتى الموت . . وأنبه المثنى على ذلك . . وأمر المسلمين بالعودة إلى الشاطئ الآخر . . وظل هو وبعض المجاهدين يدافعون دفاعاً مستميتاً حتى عبر المسلمون الجسر . . وكان آخر من قتل على الجسر سليط بن قيس . . ومنى المسلمون فى هذه المعركة بخسارة فادحة . . إذ قدر بعض المؤرخين أن من استشهد بين قتيل وغريق بلغ قرابة أربعة آلاف مسلم . . وقد شعر المثنى المقاتل العظيم بخيبة الأمل التى منى بها المسلمون . . حتى أن بعضهم ترك ميدان القتال استحياء من هذه الهزيمة . . وظل هو وحده رغم جراحه فى المعركة . . على أرض العراق . . متهيئاً للقتال . . إلا أنه كان من حسن حظ المسلمين فى أنه عقب هذه المعركة اشتد الخلاف على

العرش ثانية فى بلاد فارس . . وبلغ نبأ هذه الهزيمة المفجعة إلى عمر . . فما كان منه إلا أن قال:

« اللهم إن كل مسلم فى حل منى أنا فيئه كل مسلم . . يرحم اللّه أبا عبيدة لو كان انحاز إلى لكنت له فيئه» .

وعزم الخليفة الجسور أن يحسم الأمر فى الجبهة الفارسية فأعد جيشاً كان ينوى أن يقوده بنفسه للتوجه إلى العراق . . إلا أن الصحابة أشاروا إليه أن يولى غيره القيادة ليتسنى له خلافة المسلمين . . فاختار سعد بن أبى وقاص . . وكان المثنى وقد انضمت إليه بعض القبائل قد صمد للفرس فى معركة (البويب) والذى حقق فيها المثنى بن حارثة على الفرس انتصاراً عظيماً . . كان انتقاماً رهيباً للمسلمين فى معركة الجسر . . وكان الجيش الإسلامى يضم بين صفوفه بعض نصارى العرب الذين دخلوا المعركة بدافع الدم لا الدين . . وقد أظهرت هذه المعركة عظمة المثنى بن حارثة . . والدور العظيم الذى أداه خدمة للإسلام . . وهل يمكن لأحد أن ينسى مواقفه الرائعة وجهاده العظيم يوم الجسر . . ويوم البويب . . لقد استشهد أخوه فى البويب . . وخشى المثنى أن يفت ذلك من عضد المسلمين . . فصاح فيهم:

- يا بنى الإسلام لا يزعجكم مصرع أخى فهكذا مصارع الأخيار .

وأخـذ يصول ويجـول فى الميـدان . . ونداء اللّه أكبـر . . الذى يردده . . تحمـله الرياح إلى مسـامع المسلمين . . فيـقبلون مفـضلين الموت على الحياة . . وكسب هذه المعركة . . التى دفعت رستم أن يعد جيشاً ضخماً ليجابه به جيوش المسلمين الكاسحة . . ولم يخف على المثنى القائد العظيم ما يعتزمـه رستم . . فأرسل إلى عمر بن الخطاب فى المدينة يخبره بعزم الفرس على الانتقام من المسلمين . . وطلب فيه إرسال مدد العراق . . وكان هذا المدد الذى أعده الخليـفة بقيادة سعد ابن أبى وقـاص . . ولكن إرادة اللّه شـاءت ألا يلتقـى سعـد بن أبى وقاص بهذا القائد العظيم . . فقد مات متأثراً بجراحه التى أصيب بها أثناء معركة الجـسر . . بعد أن استطاع بشجاعـته وتفكيره . . وقدرته على التخطيط ورفضه أن يعبر لـلفرس الجسر بل طلب أن يعبروا هم إليه بعكس أبو عبيدة . . بهذا استطاع أن يـعيد للمسلمين هيبتهم . . ويعيد سـيطرتهم على ما بين دجلة والفرات . . واقـتربوا من أطراف المدائن عاصمة الفرس نفسها . .

لقد استشهد المثنى بن حـارثة . . تاركاً ذكراً عريضاً ممدوداً . . فقد حارب للّه . . وفى سـبيل اللّه . . ولم يعرف أحـد عنه أنه حقق ثراءً من وراء ذلك . . بل لم يـعـرف عنه إلا القـيم النـبـيلة . . والإيمان العميق برسالة الإسلام . . التى يجب أن تنتشر بين الناس . .

استشهد المثنى . . وبقى اسمه خالداً . .

وحمل راية الجهاد بعده سعد بن أبى وقاص الزهرى القرشى . .

وكان سعد بن أبى وقاص هذا يجيد الرماية بالسيف . . وكان قريباً لرسول اللَّه ﷺ . . وعندما تولى القيادة كـان عمره قد بلغ الأربعين عامـاً . . له تاريخـه الناصع . . فهـو من أوائل المسلمين . . وهو من رجال بدر . . وسار سعد ومعه أربعة آلاف مـقاتل . . فيهم عدد كبير من مسلمى اليمن . . وانضم إليه طليـحة الذى كان من قبل قد ادعى النبـوة . . وأراد أن يكفـر عمـا اقـترفت يداه . . وانضـم إليه أيضـاً الأشعث بن قيس شيخ كندة على رأس جيش كبير من حضرموت . .

ويقول البـلاذرى : وسار سعـد إلى العراق فأقـام بالثعلبـية ثلاثة أشـهر حـتى تلاحق به الناس . . ثـم قدم العـذيب فى سنة خـمس عشـرة . . وكان المثنى بن حارثة مريـضاً . . فأشار عليـه بأن يحارب العدو بين القـادسية والعـذيب . . ثم اشتد وجعـه فحمل إلى قـومه فمات فيهم . . وتزوج سعد امرأته . .

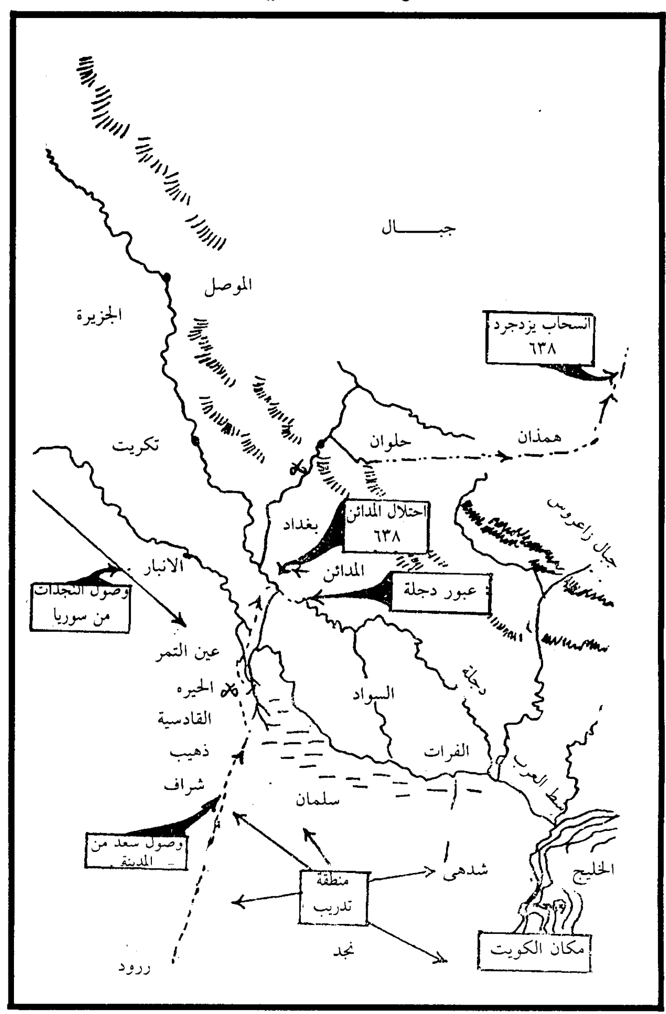
ورواية البـلاذرى تخـتلف عن روايات أخـرى لبـعض المؤرخين الذين يؤكدون مـوت المثنى قبل وصول سعـد . . وأنا أميل إلى هذا الرأى وخاصة أن المثنى كـان قد ترك رسالة مع أخيـه معن بن حارثة إلى سـعد بن أبى وقـاص . . ينصـحه فـيهـا أن يحارب عـدوه فى الصحراء حيث يجيد العرب القتال فيها . .

وكان (يزدجرد) قـد جند جيشاً بالـغ الضخامة بقـيادة رستم . . وكان رسـتم . . وهو قـائد خبـير مـحنك . . كان يريد أن يتـجنب الدخول مع العرب فى معركة فاصلة . . فالعرب لم يحتلوا إلا أماكن صغيرة من جـسم الإمبراطورية الفارسية الضـخمة التى كانت تضم أجزاء من الهـند وأفغانسـتان . . أى أنهـا إمبراطوريـة ما تزال رغم الخلافـات فيها مـترامية الأطراف . . قـوية الجانب . . من الممكن مع الوقت أن ينتـصروا على المسلمين . . بينـما كان (يزدجـرد) يرى أن العرب جـماعة من الرعاة . . وإنه بقـدرة الفرس إبادتهم . . وتأديب هؤلاء الجياع الذين أتوا من الصحراء . . ولم يكن لهم ذكر قبل رسالة محمد . . ولم يكن لهم أى خطر يذكر . .

أما سعد بن أبى وقاص . . فقد أرسل وفداً عربياً إلى المدائن لمقابلة كسرى . وإقناعه بالدخـول فى الإسلام أو دفع الجزية . . وكان على رأس هذا الوفد المكون من عشرين فارسـاً النعمان بن مقرن . . وكان من بين الوفد عمرو بن معد يكرب الزبيدى . . والأشعث بن قيس . . وكلاهما من شجعان العرب . . وأيضاً كانا من زعماء الردة . .

وهنا نقف وقفة عند وفد المفـاوضة الإسلامى . . لنرى معدن هذا النفر من المسلمين الذين آمنوا بربهم . . وجعل منهم الإسلام أعزة . . يتحدثون . . ويتـفاوضون من خلال مبادئ اعـتنقوها . . وجرت فى

معركـة القادسيـة



دمائهم مـجرى الدم . . أنهم يدخلون قصـر كسرى . . حـيث الابهة والرياش . . والحـرس المدجـجـون بـالسـلاح . . وهم فى مـلابس متواضعة . . وأسلحة متواضعة . .

إن كسرى يسألهم لماذا جاءوا إلى بلاده؟ .

ويتحـدث النعمان بن مـقرن . . يذكره برسـائل النبى إلى ملوك وأمراء القياصرة . . ومنهم ملك الفرس . . وحدثه عن الإسلام ونبى الإسلام . .

وقال له أيضاً :

- نحن ندعوكم إلى دينـنا وهو دين سن الحسنى . . وقبح القـبيح كله . . فـإن أبيـتم . . فـأمـر من الشـر هو أهون من آخـر شـر منه الجزية . . فإن أبيتم فالمناجـزة . . فإن أجبتم إلى ديننا . . خلفنا فيكم كتـاب اللّه . . وأقمنا لكم عليه على أن تحكمـوا بأحكامه . . ونرجع عنكم وشأنكم وبلادكم . . وأن اتقيتمونا بالجزية قبلنا منكم ومنعناكم وإلا قتلناكم» . .

قال يزدجرد :

- إنى لا أعلم فى الأرض أمة كانت أشقى ولا أقل عدداً ولا أسوأ ذات بين منكم . . قـد كـنا نوكل بكم قـرى الضـواحى فـيكفـوننا وإياكم . . لا تغزونكم فارس فـتطمعون أن تقدمـوا لهم . . فإن كان

عدد لحق فلا يغـرنكم منا وإن كان الجهد قد دعـاكم فرضنا لكم قوتاً إلى خصـبكم . . وأكرمنا وجـوهكم وكسـوناكم . . وملكنا عليكم ملكاً يرفق بكم؟؟» .

وهنا نقف أمام رد المغيـرة بن زرارة الأسدى عليه . . لأن هذا الرد لا يعنى مجرد إقحام كسرى الفرس . . ولكنه يضع صورة حية مشرقة عن حال العرب قبل الإسلام . .

وأنها كانت بالفعل كـما يقول كسرى . . أمة مهـيضة الجناح أمام صـولة الفرس والروم . . أمـة فقـيرة . . أمـام ثراء الإمبـراطوريتين الضخمـتين . . شعب متخلف حـضارياً . . أمام الحضارة الفـارسية والرومانـية والإغريقـية . . ولكن بمـجئ رسالة الإسـلام . . وبمقدم محمد عليه الصلاة والسلام تغيرت ملامح الصورة كلها . . وانقلبت الأوضاع رأساً على عقب . .

نتابع معاً هذا الرد المعبر :

- أيهـا الملك . . إن هؤلاء رؤوس العـرب ووجـوههم . . وهم أشراف . . وإنما يكرم الأشراف الأشـراف . . وليس كل ما أرسلوا به جمعوه لك . . ولا كل ما تكلمـت أجابوك عليه . . وقد أحسنوا ولا يحسن علـيهم إلا ذلك . . فجـاوبنى لأكون الذى أبلغك ويشـهدوا على ذلك : أما ما ذكـرت من سوء الحال فما كـان أسوأ حالاً منا . .

وأما جـوعنا فلم يكن يشبـه الجوع . . وكنا نأكل الخنافس والجـعلان والعقـارب والحيات . . فـترى ذلك طعامنا . . وأمـا المنازل فإنما هى ظهـر الأرض . . ولا نلبس إلا مـا غـزلنا من أدبار الإبل وأشـعـار الغنم . . ديننا أن يقتل بعـضنا بعضاً . . ويغيـر بعضنا على بعض . . وإن كان أحدنا ليدفن ابنته حية كراهية أن تأكل من طعامنا . . فكانت حالنا قبل اليـوم على ما ذكرت . . فبعث اللَّه إلينا رجـلاً معروفاً . . نعرفه نسـبه . . ونعرف وجهه ومولده . . فأرضـه خير من أرضنا . . وحسـبه خيـر من أحسـابنا . . وبيتـه أعظم بيوتنا . . وقبـيلته خـير قبائلنا . . وهو بنفـسه كان خيرنا فى الحال التى كان فـيها . . أصدقنا وأحلمنا . . قد دعانا إلى أمر فلم يجبه أحد . . أول من طَرِبَ كان له وكان الخليفة من بعده . . فقال وقلنا ، وصدق وكذبنا ، وزاد ونقصنا ، فلم يقل شيـئاً إلا كان . . فقـذف اللَّه فى قلوبنا التصديق له واتبـاعه فصار فيما بيننا وبين رب العالمين . . فـما قال لنا فهو قول اللَّه . . وما أمرنا فهـو أمر اللَّه . . فقال لنا إن ربكم يقـول إنى أنا اللَّه وحدى لا شـــريك لـه . . فكنـت إذ لم يكن شـئ . . وكل شئ هـالك إلا وجهى . . وأنا خلقت كل شئ . . وأن رحـمتى أدركتكم . . فـبعث إليكم هذا الرجل لأدلكم على السبيل التى بهـا أنجيكم بعد الموت من عذابى . . ولأحلكم دارى . . دار السلام فنشـهد عليه أنه جاء بالحق من عند اللَّه . . وقـال من تابعكم على هـذا فله ما لكـم وعليه مـا

عليكم . . ومن أبى فأعرضوا عليه الجزية . . ثم امنعوه مما تمنعون منه أنفسكم . . ومن أبى فقاتلوه فأنا الحكم بينكم، فمن قبل أدخلته جنتى ومن لم يبق منكم أعقبته النصر على من ناوأه . . فاختر إن شئت الجزية عن يد وأنت صاغر . . وإن شئت فالسيف . . أو تسلم فتنجى نفسك .

قال له الملك :

- أتستقبلنى بمثل هذا؟ . .

- ما استقبلت إلا من كلمنى . . ولو كلمنى غيرك لم أستقبله إلا به . .

- لولا أن الرسل لا تقتل لقتلتكم لا شئ لكم عندى . .

وأمر الملك أن يؤتوه بوقر من تراب . . وأن يحملوه على أشرف هؤلاء . . ثم أمر أن يسوقوه حتى يخرج من المدائن؟ .

وقال للوفد :

- أرجعوا إلى صاحبكم فاعلموه أنى مرسل إليه رستم حتى يدفنكم ويدفنه فى خندق القادسية . . وينكل بكم وبه من بعد . . ثم أوردكم بلادكم حتى أشغلكم فى أنفسكم بأشد مما نالكم .

- وسأل : من أشرفكم؟

رد عاصم بن عمرو :

- أنا .

فحملوه وقر التراب على عنقه فحمله . . وركب راحلته . . متجهاً إلى سعد بن أبى وقاص . .

صورة تعطى دلالة حية لما فعله الإسلام بهذه النفوس . . لقد كشف عن المعدن الحقيقى لقيم الإسلام الذى صنع هؤلاء الأبطال الذين غيروا مجرى التاريخ الإنسانى كله . .

لم يكن يدرى يزدجرد وغيره أن عصراً جديداً يطل على الوجود . . وأن صورة جديدة للحياة تنشأ على الأرض . . وأن نور الإسلام لن يحول بينه وبين الانطلاق شئ . . وأن امبراطورية الفرس التى كان طغيانها وعسفها وجورها . . قد عجزت وشاخت . . وأن حضارتها آن لها الرحيل . . آن لها أن تغرب غروباً أبدياً . . فهى امبراطورية نخر فيها السوس . . وأضعفها الترف . . ونخر فيها سوس الفساد . . فكيف تقاوم حضارة جديدة . . وأسلوب حياة جديدة . . وعقيدة رائعة . . من خلالها عرف بها المسلم نفسه ووزنه ودوره فى صنع الحياة . . ومن خلالها عرف المسلم أن الحياة جسر للآخرة . . وأن الموت فى سبيل اللَّه قمة أحلامه . . وأن الدنيا بمن فيها لا تساوى عند اللَّه جناح بعوضة . . ولو أنها تساوى شيئاً ما سقى منها الكافر جرعة ماء . .

ليس فى الإسلام طبقات . . طبقة السادة الذين لهم كل شئ . . وطبقة العبيد الذين ليس لهم أى شئ . . لقد سوى الإسلام بين

الجميع . . ولا فـضل لأحد على الآخر إلا بالتقـوى . . أقدار الناس موكولة بـقربهم أو بعدهم عن اللّه . . وقانون الإسـلام يكفل العدالة للجميع . . فالمال مال اللّه . . وهو حق للجميع . . والغنى عليه أن يدفع زكاة ماله . . والمجتمع متكفل بأمن المسلم وحـياته ومستقبله . . كيف يمكن للامبـراطورية الفارسية بكل هيلمـانها . . أن تقضى على أمة هذه عقيدتها؟ . . فـالذى لا يحارب عن عقيدة وعن هدف أجبن الناس . . والمسلمون يحاربون عن عقيدة . . والفرس قد أعياهم كثرة الحـروب . . وكثـرة الفسـاد وكـثرة الظلم . . وهـانت فى عيـونهم الحياة . .

لقـد حاربوا الـرومان . . انتـصـروا عليهم . . وانـهزمـوا على أيديهم . . وكانت الصـراعات بينهـما لا تنتهى . . مما أنهك قـواهما معـاً . . ولكنهم اليوم لا يجابـهون الروم . . إنما يجابهـون من كانوا بالأمس القريب حفاة عراة . . تأويهم فى خيامهم . . يسلون لياليهم الطويلة المرهقة بترديد أبيات الشـعر . . أو بالإغارة على الآخرين . . أو التغنى بالمفاخـر . . مفاخر القبـيلة وعزها . . وسطوة الأجداد . . حيـاة طبعتـها الصحـراء البالغة الجـفاف والقسـوة بطابع خاص . . وأورثتهم عادات خاصـة . . وتقاليد خاصة . . وأكسبـتهم قوة بدنية ممتازة . . وصبراً لا حدود له . . فهم يعيـشون على المطر . . وكثيراً ما كانت تضن عليـهم السحب بقطرات الماء . . حيـاة عجيبة . . رتـيبة

مملة . . فما أكثر ما كانوا يتـركون ملاعب الصبا بحثاً عن الأرزاق فى أرض جديدة . . ومن هنا كـان التغنى بمهاد الصبـا . . والوقوف على أطلال من كـانوا لهم أحـبابـا . . ولم يكن هناك سـوى مكة والمدينة والطائف . . هذا المثلث عرف الاستقـرار . . والتحضر . . ربما لعمل أهل مكة والطـائف بالتـجـارة والمرعى . . وأهل المديـنة بالتـجـارة والزراعة . . وما عدا ذلك فالحياة البدوية بقـسوة الحياة فيها . . وجاء الإسلام فغـير حياتهم . . إنه دين عـالمى . . فالنبى لم يأت إلى مكة وحدها . . ولكنه جاء إلى العالم كله . . ومعنى عالمية الإسلام . . أن ينطلق ليـبشـر بمبادئه وقـيمـة العظيـمة عـالماً أضناه عذاب جـلاديه ومستعبديه . .

إن محمد عليه الصلاة والسلام هو القائل :

« بعثت إلى الناس كافة ، فإن لم يستجيبوا لى فإلى العرب . . فإن لم يستـجيـبوا لى فـإلى قريش . . فإن لم يسـتجـيبوا لى فـإلى بنى هاشم . . فإن لم يستجيبوا لى فلى وحدى » .

وها هو الإسـلام يغـزو القلوب والعقـول . . ويمد أضـواءه على مـخـتلف أرجـاء الدنيـا . . وكـان لا بد أن يصطدم مع الفـرس . . والرومان أقوى قوى هذا الزمان . . وأن يقضى على عقائد فاسدة . . أفسدت الحياة وأفسدت الناس . . العقيدة المجوسية التى سادت أرض

فارس عقيدة غريبة . . مضلة ومضللة . . إنها ترى أن هناك إلهاً للشر وآخر للخير . . وكلا الإلهين يتنازعان الكون والإنسان . . ولم تحل هذه العقيدة مشكلة الإنسان . . بل جعلته يغرق فى أوحال الشرك . . ولم تفتح له طريقاً للعدل . . بل فتحت أبواباً للظلم . . وإذا كانت هذه الديانة لمَ تحل مشاكل الإنسان فإن (المانوية) التى انتشرت فى أرض فارس . . على يد (مانى) جعلت الإنسان يعيش فى تيه فكرى . . أنه لا يفتح طريقاً لتطور الحياة ونمائها . . فالحياة شر . . والشر يجب أن يمنع ومنعه بأن يبتعد الإنسان عن التناسل . . حتى لا يأتى جيل يرى عذاب الحياة . . وما دام هناك تناسل . . فهناك النعمة الأبدية . .

وعرفت أرض فارس أيضاً المزدكية . . التى أباحت شيوعية المال والنساء . . ومعنى هذا أنه لا أنساب . . ولا شرف ولا فضيلة . . هذه هى المذاهب العجيبة التى ترعرعت على أرض فارس . . فهل يمكن لمثل هذه المذاهب البالية أن تخلق قيماً أو حضارة يمكن أن تعيش ؟؟

كل هذه الأسباب فتحت الأبواب على مصراعيها أمام الإسلام . . وهذا هو سر انطلاق الإسلام المذهل . . بتلك السرعة التى لم يشهد لها التاريخ مثيلاً . . فقد رأى فيه الناس كل أمل للخلاص من حياة العفن والفساد . . فانطلق بقوة الإقناع . . وببساطته الشديدة . .

وتناسبه مع الفطرة السليمة. . لذا لم يكن عجباً أن ترى هذه الصور المشرقة التى تغنى عن التعليق. . عندما يرسل سعد بن أبى وقاص إلى رستم رسولاً. . عندما تصبح المعركة لا مفر منها . . (فيزدجرد) مصمم على تأديب العرب. . وخاصة أن غارات المسلمين على أرض فارس. . تلك الغارات المتقطعة. . قد رفعت الروح المعنوية للمسلمين. . وفعلت العكس فى الفرس. . وكثرت شكوى الخاضعين لحكم الفرس من ذلك إلى كسرى. . فأمر قائده رستم أن يخوض معركة فاصلة ينهى فيها أسطورة الزحف العربى. .

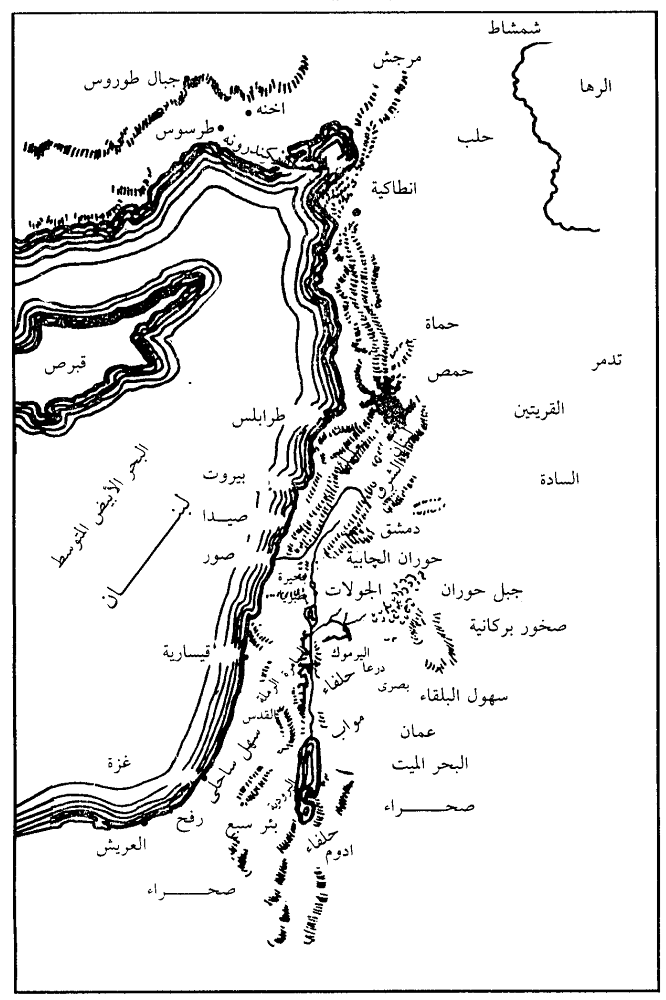
أرسل سعد رجلاً إلى رستم قائد الفرس. . ودخل عليه هذا الرجل وهو جالس على سرير فى غاية الفخامة. . وحوله الحرس المدججون بالسلاح والأرض مغطاة بسجاد عجمى فاخر . . لم ينزل العربى من فوق فرسه الضعيف. . بل دخل على رستم خيمته وهو ممتط صهوة جواده . . لم يهزه أى شئ من هذه المظاهر التى أغرق بها القائد الفارسى نفسه. . ولم ينزل إلا أمام سرير القائد الشهير. . وتقدم ليجلس بجانب رستم فمنعه الحرس. . فقال لهم هذا البدوى البسيط:

- أنا لم آتكم إلى هنا لينزع سلاحى منى . . ولكنكم دعوتمونى اليوم فلم أرغب فى المجئ . . أما إذا كنتم ترغبون فى أخذ سلاحى. . فسأعود إلى قومى.

وأمر رستم حراسه أن يتركوه . . وأخذ الرجل يسير وهو يطعن الفراش الوثير برمحه . . غير مكترث ولا يعتريه أى خوف . . ولم يخرج رستم من هذه الزيارة إلا بعد أن خيره الرسول بين الإسلام أو الاستسلام أو دفع الجزية . .

وحاول رستم أن يؤخر المعركة عن طريق المفاوضات . . وهل يعبر العرب إلى الفرس أم يعبر الفرس إلى العرب . . ولم يكن العرب بالسذاجة التى كان يتصورها رستم . . فقد انتفعوا بالتجربة التى مرت بهم فى معركة الجسر . . وطلبوا من الفرس أن يعبروا هم إليهم . . وكان سعد بن أبى وقاص قد أعد عدته فى القادسية ونشر جيشه ونظم صفوفه . . وقاد هو المعركة من فوق ربوة عالية . . ودارت المعركة فى اليوم الأول رهيبة عاتية . . والفرس معتمدون فيها على الفيلة . . ولكن شجاعة المسلمين وتصديهم لهذه الفيلة . . ومحاولة عرقلة تقدمها جعلهم يأملون بنصر اللّه . . وخاصة تلك الشجاعة النادرة التى ظهرت من بعض فرسان العرب . . فمنهم من حاول أن يتوغل داخل صفوف العدو ويصل إلى رستم نفسه ويقتله . . وفى اليوم التالى كانت المعركة أشد قسوة . . وأشد ضراوة . . وكانت الجيوش الإسلامية التى كانت فى سورية بصحبة خالد بن الوليد . . والذى أمر عمر بن الخطاب أن يعود نصفها إلى العراق من جديد والاشتراك فى المعارك مع سعد كانت قد بدأت تصل إلى جبهة القتال

العمليات فى سوريا عام (٦٣٦هـ)



بقيادة الفارس العظيم القعقاع بن عمرو . . والذى ابتكر طريقة جديدة فى حربه مع الفيلة بضربها فى عيونها . . فتذعر وتفر هاربة . . وتحدث من الفزع فى صفوف الأعداء ما يعطى فرصة سانحة للمسلمين لتسديد ضرباتهم إلى العدو . . وفى اليوم الثالث من المعركة التى استمرت طوال يوم الأمس وطوال الليل . . كان حماس المسلمين على أشده . . ويقينهم من النصر الأكيد جعلهم يؤثرون الموت على الحياة . . وفى اليوم الرابع كانت رغم ضراوة القتال تبشر بنصر المسلمين . . وخاصة أن ريحاً عاصفة هبت . . وانتشرت الرمال وسيطر جو كئيب على أرض المعركة . . ولكن المسلمين وجدوا فى ذلك إيذاناً بنصر اللَّه . . وحاول رستم الفرار . . ولكن لحق به هلال ابن علقة . . وقبض عليه . ثم قتله . . وصعد على سريره وهو يصيح . . قتلت رستم ورب الكعبة . . وتصاعدت صيحات التكبير . . وأصبح النصر قاب قوسين أو أدنى . . ولم يكن أمام الفرس مفر من الهرب بجلودهم من هذا الجحيم الذى عاشوا فيه وسط قوم يفضلون الموت على الحياة . . وقد اختلفت الآراء فى عدد قتلى الفرس فى هذه المعركة . . وقدرها البعض بثلاثين ألف قتيل . . بينما بلغت خسائر جيش المسلمين فى اليوم الأول خمسمائة قتيل . . وألفين فى اليوم الثانى . . وستة آلاف فى اليوم الثالث . .

وقد أبلى طليحة الذى أدعى النبوة . . وعاد إلى حظيرة

الإســلام . . وأخذ يــكفر عن هذه الخـطيئـة الشنيـعـة . . أبلى بلاء حسناً . . وهكذا انتـهت معركـة القادسية . . وهــى معركة تاريخـية فاصلة فى حياة المسلمين . . تلك المعركة التى أمر سعد بن أبى وقاص أن يقـرأ الجند سورة الأنـفال قـبل المعـركة تلك السـورة التى تذكـر المسلمين بانتـصارهم العظيم فى مـعركة بدر . . فـقد كـان المسلمون يقرءون السورة فى حـبور عظيم . . تلك السورة التى ورد فيــها قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾ [الأنفال: ٦٥]

كل هذه الأحداث كـانت تجرى، وعـمر بن الخطاب مـشوق إلى معـرفة كل ما يدور فى جـبهات القتـال . . وبينما كان سـعد بن أبى وقاص قد استقر أياماً فى القـادسية . . وقال بعض المؤرخين شهراً . . يدفن موتى المســلمين ويعالج الجرحى . . كـان أمير المـؤمنين يخرج بنفسه خارج المدينة لعل يجد من يستـفسر منه أخبار القتال . . إلى أن رأى رجلاً على راحلته . . ولم يكن هذا الرجل يعرف عمر . . فسأله عمر عن أحوال المسلمين فأخذ الرجل يحدثه عن معارك القادسية . . وعمر يجـرى خلفه وهو يستمع بشغـف عظيم إلى هذه الأخبار . . حتى إذا وصل إلى المدينة وجد الناس يحيون عمر ويقولون له يا أمير

المؤمنين . . وعرف الرجل أنه أمام الخليفة العظيم . . فأخذ يهنئه بالنصر كما أخذ المسلمون يهنئونه . .

لقد كانت معركة اليرموك معركة فاصلة . . فتحت الطريق أمام جيوش المسلمين إلى الزحف نحو عاصمة كسرى نفسها . . فقد غنم المسلمون غنائم كثيرة فى المال والعتاد . . وغنموا تاج رستم المرصع بالجواهر . . وراية كسرى التى تنتهى أطرافها بالجواهر الثمينة . . وتابع سعد سيره بعد ذلك . .

أو على تعبير البلاذرى :

« لما انهزمت الفرس فى القادسية قدمت فلولهم المدائن ، فانتهى المسلمون إلى دجلة وهى تطفح بماء لم ير مثله قط . . وإذا الفرس قد فعلوا السفن والمعابر إلى الضفة الشرقية وحرقوا الجسر . . فاغتم سعد والمسلمون إذ لم يجدوا للعبور سبيلاً فانتدب رجلاً من المسلمين فسبح فرسه وعبر فسبح المسلمون . . ثم أمروا أصحاب السفن فعبروا الأنقال فقالت الفرس : «واللّه لا تقاتلون إلا خبا . . فانهزموا» . .

إن جيوش المسلمين زحفوا بعد ذلك . . وخاضوا عدة معارك وهم يتجهون صوب المدائن . . وكانت آخر المعارك هى معركة (جلولاء) التى هزم فيها الفرس هزيمة ساحقة . . وهرب بعدها

(يزدجرد) من حلوان إلى منطقة (الرس) فى شمال فارس . .

ولقد أرسل سعد بن أبى وقاص إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب بساطاً طوله ستون ذراعاً محلى بالجواهر والفصوص الذهبية وقد قسمه عمر بن الخطاب . .

وعندما دخل عاصمة كسرى . . قرأ فى خشوع قوله تعالى:

﴿كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٢٥) وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ (٢٦) وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ (٢٧) كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ (٢٨)﴾ [الدخان: ٢٥-٢٨]

وأصبحت العراق كلها تحت حكم المسلمين . . وكان على عمر أن ينشر العدل بين ربوعها . . حتى يشعر الناس أن هناك فرقا بين حكم فارس وحكم المسلمين . . فأمر أن تظل الأرض فى يد الفلاحين . . وأن تبنى مدينة البصرة والكوفة ويقطنها العرب . . كما أخذ ينشر مبادئ العدالة الإسلامية فى العراق . . ليشعر الناس بالأمن والأمان . .

وقد كانت معركة القادسية الفاصلة فى السنة الرابعة عشرة الهجرية وقال البعض أنها فى السنة الخامسة عشرة الهجرية . . أى أنها كانت قبل معارك اليرموك وبعد فتح دمشق . . وسوف يظل بلا شك أثر فتح العراق معروفاً باسم سعد بن أبى وقاص . . الذى عَمَرَ

طويلاً . . حتى بلغ الثـالثة والثمانين من عمـره . . وكان واحداً من الستة الذين أمر عـمر بن الخطاب عند وفاته أن يكون اختيـار خليفته منهم . . ولكنه آثر البعـد عن الخلافة . . رغم قول ابن أخـيه هاشم : إن مائة ألف سيف تريدك؟ . .

ولقـد كانت وصيـة سعـد أن يدفن فى عـباءة من الصـوف كان يحارب بها فى غزوة بدر . . وقد دفن بالمدينة فى عام ٥٤ هـ ، وقيل ٥٥هـ . . ومما يروى عن تاريخـه أنه اعـتزل الفـتنة التى كـانت فى خلافة عثمان بن عفان . . وأنه دخل على معاوية عندما تولى الخلافة وقال له :

- السلام عليك أيها الملك . . ولم يقل يا أمير المؤمنين .

وضحك معاوية وقال له :

- ما كان عليك يا أبا إسحق لو قلت يا أمير المؤمنين . .

ورد عليه سعد :

- أتقولها جذلان ضاحكاً؟ واللَّه مـا أحب أنى وليتها به (أى بحد السيف) وقد روى هذه الحكاية الطبرى .

* * *

المسلمون فى الشام

عـرفنا أنه فى الوقت الذى كـانت تدور فيـه المعـارك الطاحنة فى العـراق بين قوات المسـلمين وبين الفرس . . والتـى انتهت بدخـول المسلمين المدائن عاصمة كسرى نفسها على يد سعد بن أبى وقاص . . أنه فى نفس الوقت كـانت تدور معـارك ضخـمة وهائلة بـين قوات المسلمين وبين دولة الرومـان فى الشـام . . وكيف انتـصر المسلمـون انتصـارهم الساحق فى معـركة اليرمـوك بقيادة خـالد بن الوليد . . والذى قاد المعـركة عندما جند الجنود على شكل كـراديس . . ووحد أمراء المسلمين تحت قيادته . . وكان هذا الانتصار الساحق على الروم سبباً فى رفع الروح المعنوية لدى المسلمين . .

وتولى عمـر بن الخطاب الخلافة بعـد الصديق . . وكان عـمر له رأى فى خالد . . فـقد كـان هناك خلافـا بينهما مـنذ حروب الردة، ومقتل مـالك بن نويرة . . وعمر لم يكن راضياً عن تصـرفات خالد وخاصـة أنه تزوج من زوجة مـالك بن نويرة . . وطلب من أبى بكر عزله . . ورفض أبو بكر ذلك . .

لقد طلب عمـر من أبى عبيدة بن الجراح أن يتولى قـيادة الجيوش

الإسلامـية فى الشام وعـزل خالد . . وقـد جاءت رسالة عـمر أثناء المعركة فـتكتم أنباء هذه الرسالة حتى انتهت المعركـة . . وأسر لخالد بالحقيقة . . وعـمل خالد جندياً مخلصاً من جنود المسلمين . . وهناك بعض الروايات التى ترى أن كـتـاب عزل خـالد كـان أثناء حصـار دمشق . . كمـا أن ابن كثير يروى أن خالدا عنـدما علم بذلك العزل قال لأبى عبيدة :

- يرحمك اللّه . . ما منعك أن تعلمنى حين جاء . .

وكان رد ابن الجراح :

- إنى كـرهت أن أكـثر عليك جـراحك . . ومـا سلطان الدنيـا أريد . . ولا للدنيا أعمل . . وما ترى سيصير إلى زوال وانقطاع وإنما نحن اخوان . . وما يضر الرجل أن يليه أخوه فى دينه ودنياه . .

وهى صورة مـشرفة لما كانت عليـه الروح الإسلامية . . فـالأمر ليس أمر قيادة وزعامة . . ولكن الأمر أمر عقيدة يجب أن تنتصر . . مهما كانت الظروف . . فالكل فى خـدمة الهدف الأكبر وهو انتصار الإسلام . . ونشـر رايته بين ربوع البـشر . . والموقف الذى وقـفه أبو عبيدة من خـالد بن الوليد . . سبق أن وقفه خالد مـن أبى عبيدة بن الجـراح . . عندمـا أمر أبو بكـر الصديق خـالد بن الوليـد أن يتـرك العراق . . ويتـجه صـوب الشام ليـعاضد جـيش المسلمين هناك . . ويتولى أمر القيادة . . ويومها قال خالد لابن الجراح :

- أتانى كتاب خليفة رسول اللّه يأمرنى بالسير إلى الشام وبالمقام على جندها والتولى لأمرها . . واللّه ما طلبت ذلك ولا أردته . . ولا كتبت إليه فيه . . وأنت رحمك اللّه على حالك ما كنت عليها . . لا يعصى أمرك ولا يخالف رأيك . . ولا يقطع أمر دونك . . بأنك سيد من سادات قريش . . لا ينكر فضلك ولا يستغنى عن رأيك . . أتم اللّه ما بنا وبك من نعمة الإحسان ورحمنا وإياك من عذاب النار .

كان العصر هو عصر الفتوحات الإسلامية فى قمة أوجها . . وكانت الدماء العربية تسيل فى ربوع الشام والعراق . . وتجابه قوى بالغة القوة والثراء . . فى سبيل الأمل العظيم . . وهو نشر الإسلام . . وقد دخل المسلمون هذه المعارك الضارية . . وكلهم أمل باللّه وفى اللّه . . فهم ليسوا حريصين على متع الحياة . . ولكن كان أملهم النصر أو الشهادة . .

إننا هنا سوف نلقى نظرة على جبهات القتال المختلفة وليس الغرض من ذلك هو الوقوف عند المعارك وتفاصيلها . . فذلك يحتاج إلى عشرات المجلدات . . ولكن نقف عند المنحنيات التاريخية الهامة . . وعند أهم المعارك . . والقدوة التى نخرج منها من هذه المعارك . . لأنه يهمنا أن نلقى صورة لعصر . . بما فيه من

عادات وتقاليد وقيم ومعتقدات . . وأنظمة للحكم . . لأن ظهور الإسلام كان بداية لحياة جديدة . . وقيم جديدة . . وانطلاق إلى عصر جديد . . ترتفع فيه عقيدة التوحيد . . وترتفع راية الإسلام تبشر بالحرية والعدل والإخاء والمساواة . . وكل القيم النبيلة . . أيما أضناها سياط الطغاة والمستبدين . . وسئمت الحياة رؤية الإنسان وهو يساق كسائمة تحت حكم الفرس أو الروم . . فى تلك الامبراطورية الشاسعة التى كانت تخضع لسلطان الفرس . . والأخرى التى تخضع لسلطان الروم . .

ولقد رأينا صورة للحياة فى فارس . . وفى معتقداتها الفاسدة . . وفى نظم حكمها . . كل هذه الأسباب التى أدت فى النهاية إلى سقوط هذه الإمبراطورية الفارسية فى العراق . . وانتهاء حكمها فيه إلى الأبد . . على يد هؤلاء الذين جاءوا من أعماق الصحراء . . يضئ لهم الإسلام طريقهم نحو حياة أكثر أملاً وسعادة وإشراقاً . .

لنعش إذن بعض الوقت مع المسلمين فى صراعهم مع دولة الروم . . ونلقى ضوءاً أيضاً على هذه الجبهة التى خاض فيها المسلمون معارك الهول فى سبيل انتصارات العقيدة ووضع حد لطغيان وصلف الرومان الذين بسطوا نفوذهم على الشام ومصر بعد أن انتصروا على الفرس . .

ولقد وقف المؤرخون مذهولون أمام سرعة الزحف الإسلامى وانتصارته الساحقة فى تلك السنوات القليلة أيام أبى بكر وعمر . . ولكن دراسة الظروف التاريخية تعطى للدارس لهذه الأحداث الأسباب القوية التى أدت إلى انتصار المسلمين . . فهم انتصروا بعقيدتهم . . وإيمانهم العميق بهذه العقيدة . . وتفضيلهم ما عند اللّه . . عما تزخر به الدنيا من متاع زائل . . فنالوا عز الدنيا . . ونالوا رضوان اللّه . .

نحن نعرف . . أن أبا بكر وجه أربعة ألوية إلى أرض الشام . . يرأس كل واحد منها قائداً لعب دوره فى مجرى الأحداث . . وهم أبو عبيدة بن الجراح . . وعكرمة بن أبى جهل . . ويزيد بن أبى سفيان . . وعمرو بن العاص . . على أن تئول القيادة إذا اجتمعت هذه الجيوش إلى أبى عبيدة بن الجراح . . ولكن هذه الجيوش الزاحفة فى ربوع الشام وجدت أمامها الجيش الرومانى . . بعتاده الكبير . . وعدد قواته الضخمة . . فلم يكن أمام الجيوش الإسلامية إلا أن تتحد فى اليرموك . . تحت قيادة أبى عبيدة . . وعندما طال وقوف الجيش الإسلامى أمام جيوش هرقل . . دون الدخول فى معركة حاسمة طلب الصديق من خالد أن يتوجه بنصف الجيش الذى كان معه فى العراق إلى الشام لمساعدة ابن الجراح . . وأن يتولى القيادة . . وما كان من خالد العظيم إلا أن عبر صحراء الشام فى فترة

زمنية تعتبر آية من آيات الإعجاز العسكرى. . وينضم إلى جيش أبى عبيدة ويتولى القيادة . . ويحول جيشه إلى كراديس ثم يخوض معركة ضارية. . ينتصر فيها انتصاراً ساحقاً على الروم رغم كثرة عددهم. . إلى أن جاء عمر بن الخطاب بتنحية خالد وتولية أبى عبيدة القيادة . . ولكن أبا عبيدة لم يكشف عن هذا الأمر إلا بعد انتهاء المعركة. .

وبعد معركة اليرموك . . تقدمت الجيوش الإسلامية . . محققة انتصارات كبيرة ودخلت دمشق بعد حصار طويل . . مما اضطر أهلها إلى الاستسلام ومصالحة المسلمين . . وإن كانت بعض الروايات التاريخية تقرر أن خالد بن الوليد قد فتح أحد أبوابها عنوة . . مهما يكن من شئ . . فقد كان واضحاً أن العرب مصممون على القتال مهما كلفهم ذلك وأن انتصارات اليرموك الخالدة قد فتحت الطريق نحو انتصارات كبيرة على أرض الشام. . بل إن هرقل نفسه الذى كان فى أنطاكية عندما علم بإبادة جيشه. . امتطى صهوة حصانه . . وودع تلك البلاد التى عاش فيها أمجاد حياته بتلك الكلمات التى ردد صداها سمع الزمان:

– سلام عليك يا سورية سلاماً لا لقاء بعده. وعبر جبال طوروس متجهاً نحو الغرب.

ولعل هرقل فى رحلته إلى طـريق العودة مهزومـاً قد تداعى إلى خياله العديد من الصور التى مرت به فى واقع دنياه . . ويندب حظه العاثر ويتذكر كـيف استطاع الإمبراطور جوستنيـان أن يوحدها قبل ذلك بسبعين عـاماً . . وكيف استطاع قائـداه بليزاريوس ، ونارسيس أن يعـيدا أسـبـانيـا وإيطاليا وأفـريقـيـا إلى حظيرة الإمـبـراطورية الرومانية . . ثم يتذكر الأحداث التى مـرت بالإمبراطورية العتيدة . . إلى أن أبحـر هو نفـسـه عـام ٦١٠ مـيلادية . . وتـوج ملكاً على الروم . . وخاض حروباً هائلة إلى أن انتصر على الفرس بعد سنوات من التعب والتربص والحروب المنهكة . . وكان منتهى آماله أن يعيش على هذا النصـر . . ولكنه فوجئ بالجـيش الإسلامى يدك حـصون الروم فى الشـام . . ولعله فى لحظات سـفره وهو يودع سـورية هذا الوداع الحزين يتذكر تلك الرسالة التى أرسلهـا إليه النبى محمد عليه الصـلاة والسـلام . . ولم يكن يدرى يومـهـا وهو فى عـز سلطانه ومجده وانتصاراته وغطرسته . . يتصور أن دعائم إمبراطوريته سوف تتقوض على يد أنصار هذا النبى الذى كـان يدعوه إلى الهداية فأصم أذنيـه . . وها هو يرى جـيـوشه تنطلـق كالريح العـاتيـة تكتـسح إمبراطوريته المتداعية . .

ولم يكن غريباً أن يحـقق العرب هذه الانتصارات . . فـقد سئم الناس ظلم الإمبراطورية الرومانية . . كـما سئموا تدخلهم فى أمور

الناس الدينية . . واضطهدت كنيسة بيزنطة كنيسة مصر وسوريا . . كما أن شعوب هذه المنطقة وخاصة مصر لم تنس الاضطهاد الدينى وعصره الذى لا ينسى الذى أسفر عن آلاف الضحايا . . كما أن اليهود لم ينسوا لهرقل موقفه عندما انتصر على الفرس . . ودخل بيت المقدس . . وأعطى اليهود العهد بالأمان . . إلا أن قساوسة المسيحيين ذكّروا الإمبراطور بفظائع اليهود ضد المسيحيين . . مما جعله يتخلى عن عهده لهم . . وأباح دمهم . . فهربوا من بيت المقدس وعبروا نهر الأردن . . مما جعلهم يتحينون الفرصة للانتقام . . ومن هنا فقد ساعدوا العرب عندما فتحوا الشام . . بإعطاء العرب الأسرار التى تساعدهم على تحقيق أهدافهم . . كل هذه الأشياء كانت عوناً للعرب . . وحرباً على الغرب بجانب الحنين الذى كان يجرى فى دماء العرب من أبناء الشام إلى إخوانهم فى الدم . . كل ذلك أدى إلى الانتصارات العربية فقدموا وفتحوا قنسرين فى شمال سوريا على يد خالد بن الوليد . . وزحف أبو عبيدة بن الجراح إلى أنطاكية . . وكانت من أهم مدن العالم واستولى عليها . . وكانت هذه المدينة من أهم المدن التى كان يعتنى بها أباطرة روما . . فبنوا فيها المسارح والمعابد والحمامات . . وواصل العرب زحفهم حتى أنه فى عام ٦٣٦ كانت سورية كلها قد وقعت تحت السيطرة العربية الكاملة إذ وصلوا إلى جبال الأناضول . .

وكان عمــرو بن العاص يشد بقــوة على ربوع فلسطين . . وبفرار هرقل كــان العرب قـد حـاصروا القـدس . . وأصـبح لا مفـر من استـلامها بالقـوة أو عن طريق السلم . . وقررت المدينة أن تسـتسلم بشرط أن يحضر أمير المؤمنين عمر بن الخطاب شخصياً إلى المدينة . . كما أصــر على ذلك (صفرويبنوش) . . ولم يكن أمام أبى عـبيدة بن الجـراح إلا أن يرسل لعمـر بن الخطاب بذلك . . ورحب عمـر . . وقرر الذهاب بنفسه إلى بيت المقدس . .

ويجب أن نقف قليلاً إلى موقف عظيم من مواقف عمر . . وحياة عمر كلهـا مواقف . . وإذا كنا قد تحدثنا عن مـواقف عمر أيام النبى عليـه الصلاة والسلام . . وفـى خلافة أبى بـكر . . فسوف نلـتقى بمواقف رائعة طوال خلافته إلى أن لقى اللّٰه جل علاه . .

قبل أن نتـحدث عن زيارة عمـر بن الخطاب إلى القدس . . نقف عند موقف رائع من مواقفه أثناء المعـارك فى الشام . . فقد كان جبلة ابن الأيهم . . أحد ملوك الغساسنة . . وكانوا خاضعين للرومان . . وحارب جـبلة فى صفـوف الروم فى معـركة اليـرموك . . وانتـصر العـرب . . وأسلم الـرجل مع عـشـيـرته . . وقـرر حـج بيت اللّٰه الحرام . . وقابله عـمر بن الخطاب وأحسن استـقباله . . إلا أنه أثناء طوافه بالكعبة داس أحد الأعـراب على طرف ثوبه . . واغتاظ جبلة

ولطم الأعـرابى على خـده . . وكظم الإعـرابى غـيظه . . وذهب يشكو مـا حدث له لعـمر . . وأحـضر عـمر جـبلة . . وطلب من الأعرابى أن يقـتص منه . . وطلب جبلة أن يمهله أمـير المؤمنين ليلة يفكر فى أمـره، ووافق عمر . . وتحت جنح الظلام هـرب جبلة بن الأيهم، وتوجه جبلة إلى حيث يوجـد هرقل عبر جبال طوروس . . وقيل أن عمر كـان قد بعث برسالة إلى هرقل مع رسول . . وأن هذا الرسول شـاهد جبلـة فى أبهة وعز وجـاه وهو مقـرب من هرقل . . ولكن الحنين كان يشده إلى أرض الغـساسنة . . بلاد الآباء والأجداد وأنه ندم على ما حـدث منه . . وأن هذا الحنين دفعـه إلى أن ينثر هذه الأبيات:

تنصـرت الأشراف من عار لـطمة

وما كان فيهـا لو صبرت لها ضرر

تكنفنـى فـيـهـا لجـــاج ونخـوة

وبعت بها العين الصحـيحة بالعور

فـيـاليت أمى لم تلـدنى وليـتنى

رجعت إلى القول الذى قـاله عمر

ويا ليتنى أرعى المخاض بدمنة

وكنت أسيراً فى ربيعة أو مضر

ويااليتنى بالشام أدنى معيشة

أجالس قومى ذاهب السمع والبصر

ومهما يكن من شئ . . . فإن هذا يدل على عدل عمر . . وأن عمر يطبق حدود اللّه لا فرق عنده بين ملك أو أمير أو رجل عادى من عامة الشعب . . لأن مبادئ الإسلام نفسها لا تفرق بين كبير أو صغير . . أو قوى أو ضعيف . . الكل أمام شريعة اللّه سواء بل إن عمر نفسه كان يحاسب نفسه حساباً عسيراً أصعب من الحساب الذى يحاسب به رعيته . .

إن عمر العظيم لا يعرف قانوناً غير قانون اللّه . . ومن هنا فرد العدل جناحيه فى عصره . . وكان هذا العدل جواز المرور إلى حياة أكثر أمناً واطمئناناً وسلاماً . . شعر به الناس الذين عرفوا طعم الذل والهوان والاستغلال . . فآثروا أن يستظلوا تحت راية الإسلام فدخلوا فى دين اللّه بكامل إرادتهم . . لأنهم أرادوا القدوة ممثلة فى عدل عمر . . وعدل أمرائه وقواده . . ففتح هذا العدل الطريق إلى القلوب والعقول . . فاعتنقت الإسلام . .

لنذهب معاً بعد ذلك مع عمر . . عندما يذهب إلى بيت المقدس . . إنساناً متواضعاً غاية التواضع . .

يلبس ثياباً خشنة . .

وكان قد اتجه إلى الجابية مع عدد من الجنود . . وكانت جيوش المسلمين بقيادة عمرو بن العاص تحاصر بيت المقدس . . وحدثت قبل ذلك معركة أجنادين التى انتصر فيها ابن العاص على (أطربون) قائد الجيش الرومانى الذى تحصن ببيت المقدس . . ثم وجد أن بيت المقدس لا بد أن يقع فى يد المسلمين . . ففر ببعض الجند إلى مصر . . ووجد بطريرك المدينة أن تستسلم المدينة . . وأن يكون عمر بن الخطاب نفسه هو الذى يتولى هذا الأمر . . وسعد عمر بهذا القرار . . وخاصة أن بيت المقدس له مكانة مقدسة عند المسلمين . . فهو أول قبلة للمسلمين . . وفيه صلى النبى عليه الصلاة والسلام بالأنبياء قبل عروجه إلى السماء فى ليلة الإسراء والمعراج . . إنه شئ عظيم إذن أن تصبح هذه المدينة المقدسة فى حوزة المسلمين . . وتوجه عمر إلى المدينة فى ثيابه تلك البسيطة . . غاية البساطة . . ومعه قواد جيشه ابن الجراح وخالد بن الوليد . . وعمرو بن العاص . . وهناك أعطى أهل المدينة الأمن والأمان . . وعهد إليهم بكتاب أمنهم فيه على معتقداتهم وأموالهم وحمايتهم . . وفى هذا الكتاب يقول عمر :

« بسم اللّٰه الرحـمن الرحيم . . هذا ما أعطى عـبداللّٰه عـمر بن الخطاب أمير المؤمنين إيلياء (بـيت المقدس) من الأمان، أعطاهم أماناً لأنفسـهم وأموالهم وكنائسهم وصلبـانهم وسقيـمها وبريئهـا وسائر ساكنيها . . أنه لا تسكن كنائسهم ولا تهدم ولا ينتقص منها ولا من خيـرها . . ولا من صليـبهم ولا شئ من أمـوالهم . . ولا يكرهون على دينهم . . ولا يضار أحـد منهم ولا يسكن أحد من اليـهود . . وعلى أهل إيلياء أن يعطوا الجزية كـما يعطى أهل المدائن . . وعليهم أن يخرجوا منها الروم واللصوص . . فمن خرج منهم فهو آمن على نفسه وماله حتى يبلغوا أمنهم . . ومن أقام منهم فهو آمن وعليه مثل ما على أهل إيلياء . . ومن أحب من أهل إيلياء أن يسير بنفسه وماله مع الروم . . ويخلى بيـعهم وصلبـهم فـأمنهم على أنفسـهم وعلى بيعهم وصلبهم حتى يبلـغوا مأمنهم . . ومن كان بها من أهل الأرض فمن شاء منهم قعد وعليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية ومن شاء سار مع الروم، ومن شاء رجع إلى أهله . . وأنه لا يؤخذ عليهم شئ حتى يحـصد حصادهم، وعلى مـا فى هذا الكتاب عهـد اللّٰه وذمة رسـوله وذمـة الخلـفـاء وذمـة المؤمنين إذا أعطوا الذى عـليـهم من الجزية» . .

وعلى هذا الكتاب . . أو هذا العهد الذى وقعه عمر بن الخطاب، وقعه أيضاً خـالد بن الوليد، ومعاوية بن أبى سفيـان، وعبدالرحمن ابن عوف، وعمرو بن العاص . .

وقـد طاف عمـر بن الخطاب بالمدينة . . ورأى مـا فـيهـا من آثار خالدة . . رأى اطلال هيكل سليمان، ورأى الصخرة، ومسح التراب عنها لأن مـنها كان إسـراء النبى عليه الصـلاة واالسلام . . وشـهد كنيسة القيامة . . ورفض الصلاة بها عندما حان وقت الصلاة، حتى لا يتخذ المسلمون من ذلك فيما بعـد ذريعة فيحولوها إلى مسجد . . منتهى العدل من عمر . .

وفى مكان الصخـرة التى صلى بها عمر وهو متـجه إلى بيت اللّه الحرام . . قـد أقيم بالقـرب من المكان الذى صلى فيـه عمر المسـجد الأقصى . . وعلى الصخـرة أقام عليها الخليفة الأمـوى عبدالملك بن مرون قبة الصخرة التى تعتبر آية من آيات الفن المعمارى . . وعاد عمر ابن الخطاب إلى المدينة . . واستـقبله المسلمون اسـتقبالاً حـافلاً . . وكان عمر يود فيما بينه وبين نفـسه، وقد أصبحت الشام والعراق فى قبضـة المسلمين . . أن تستقر الأمـور . . وأن تقف المعارك بينه وبين الفرس والرومان عند هذا الحـد . . وأن يوفر الأمن والأمان للناس ، ويوطد دعـائم الإمبـراطورية الإسلامـيـة . . وينشر فـيهـا شريعـة السماء . . ويـسود العدل تلك المنطقة الهـائلة من الأرض . . وتصبح منارة للناس فى كل مكان . . ولكن الرياح كثيراً ما تأتى بما لا تشتهى السـفن فـقـد أحـدق خطر هائل بالإمـبـراطورية . . خطر فـزع له المسلمون فـى كل مكان من أركان الإمبـراطورية الإسلامـية التى لم

تستقر فيها الأمور بعد . . إن بعض القبائل فى شمال الجزيرة المقيمين بين العـراق والشام يريدون القيـام بثورة مـضادة ضـد المسلمين . . يريدون بها أن يستردوا نفوذهم . . كـما أن الكثير منهم ما زالوا على المسيحـية . . ومن هنا فقد أرسلوا إلى هرقل يستدعـونه لغزو الشام وأنهم سوف يقاتلون بجانبه حتى النهاية . . تلقى هرقل هذه الرسائل وتجـدد الأمل فى أن يعيـد أمـجاده . . وأن يسـتـرد الشام وسـورية ويدخل بيت المقدس . . ويعيد أمجاد إمبراطوريته الرومانية إلى أوج عظمتها ويحقق انتصارات يتحدث بها التاريخ . . وعلم أبو عبيدة بن الجراح كما علم خالد بن الوليد ويزيد بن أبى سفيان بتلك الأحداث الجسام . . وفكروا فى الأمر ملياً . . يـزيد فى دمشق، وأبو عبيدة فى حـمص . . وخـالد بن الوليـد بقنسـرين . . ودارت فى رؤوسـهم جميعاً الكثير من علامات الاسـتفهام أزاء التصرف أمام الجيوش التى أعدتها هذه القبائل للانتفـاضة على الفتح الإسلامى وعن عزم هرقل العودة إلى غزو الشام وخاصة أن هناك من الثـغور الرومانية المنيعة ما يمكن عن طريق الأسطول الـرومانى إمـدادها بالجـيوش الـرومانيـة والمعدات . .

لقد آثر أبو عبـيدة أن يرسل لعمر بن الخطاب فى المدينة يستـشيره فى الأمـر . . وأنه قـرر أن يعـتـصم بجـيـشـه إلى أن يأتى المدد من الخليفة . . بينما قرر خـالد بن الوليد القتال . . وتأتى هذه الأنباء إلى

عمر فيشعر بالمخاطر الجسيمة التى تنشب أظافرها فى أنحاء البلاد التى تم فتحها . . ويفكر فى الأمر ملياً ، ويقرر أن يعبئ جيشاً إسلامياً ضخماً يقوده بنفسه ويذهب به لمجابهة الروم . . إنه يعرف ماذا يحدث لو حدثت نكسة للفتح الإسلامى سوف ينزوى الإسلام فى الجزيرة العربية . . بل ربما ينحسر عنها . . فلا يمكن للروم لو تحقق لهم النصر أن يتركوا الخطر الإسلامى مطمئناً فى شبه الجزيرة العربية . . بل سوف ينقضون على المدينة ومكة والطائف وغيرها من معاقل الإسلام . . لا بد إذن من معركة ضارية . . يعبئ لها أمير المؤمنين أكبر حشد إسلامى . . ويخوض به معركة الحياة أو الموت . .

إن عمر بحدسه السياسى . . عرف أن المعركة القادمة مع الروم ستفتح الباب لأن تقوم للفرس قائمة من جديد بعد أن ذالت دولتهم على يد سعد بن أبى وقاص . . ودخل عاصمتهم المدائن . . ولكن الخطر ما زال جاثماً بعد أن هرب كسرى إلى حلوان . . وسهول إيران . .

إن الأمر يستدعى أن يكون هو بنفسه داخل المعركة . . فلا بد أن الروم سوف يدخلون بكل ثقلهم هذه المرة . . بل الأسطول الرومانى تحرك بالفعل من الإسكندرية وعلى رأسه قسطنطين ابن هرقل صوب الشام . .

لقد كان عمر بعيد النظر عندما طلب من سعد بن أبى وقاص أن يقيم مدينة البصرة والكوفة . . لا يعيش فيها إلا الجنود المسلمون . . حتى إذا ما حدث ما يعكر الصفو خرجت الجيوش الإسلامية من هذه المدن تعيد الأمن والأمان إلى ربوع البلاد . .

إن الخطر الرومانى شديد هذه المرة . . وخاصة بعد أن دانت العراق والشام تحت ظلال الحكم الإسلامى . . وكان أمل عمر بن الخطاب أن يُعلم الداخلين فى الدين الجديد تعاليم الإسلام حتى ينتشر الإسلام ، ويشعر غير المؤمنين بالإسلام أيضاً بالأمان . . وعدالة الحكم الإسلامى ويدفعوا الجزية فى سبيل حماية المسلمين لهم . .

وعلى سبيل النجدة أرسل عمر بن الخطاب إلى سعد بن أبى وقاص أن يرسل نجدة إلى أبى عبيدة بن الجراح على وجه السرعة . قوامها أربعة آلاف جندى بقيادة القعقاع بن عمرو . . الذى سار بوجة السرعة إلى نجدة أبى عبيدة . . ولكن الخليفة يجد أن الأمر فى غاية الصعوب . . فالذين يواجهون المسلمين من أهل الجزيرة بلغ عددهم أكثر من ثلاثين ألفاً . . وهرقل بعث جيشاً ضخماً إلى أنطاكية . . وسوف يحصر المسلمون بين هؤلاء المتمردين وبين الجيش الرومانى . . وبلغة العصر . . سوف يصبح العرب يواجهون قوى

الغـزو الرومـانى . . فى نفس الوقت الذين يـواجهـون فـيـه ثورة داخلية . . وهو أمـر صعب جداً . . وخاصة أن ولاة الأقـاليم كانوا مشغولين بترتيب أمورهم مع الرعية . .

تحرك عمر بن الخطاب بجيشه صوب دمشق ومنها يتجه إلى ميدان القتال فـى الوقت الذى أعلنت حالة التأهب القصـوى فى كل أرجاء الشام والعراق . . وانطلق بعض أمراء المسلمين . . أمثال القعقاع بن عمر والوليـد بن عقبة وعـياض بن غنم، وسهيل بن عـدى وغيرهم صوب القبـائل المتمردة . . وعلمت هذه القـبائل بأنها ستـجابه بقوة وعنف . . وسوف يقضى عليهم قضاء مبرماً . . فالخليفة يقود بنفسه جيشاً ضخماً يتجه به لمحاربتهم ومحاربة الروم . . وجيوش المسلمين فى مختلف أنحاء الشام والعراق على أهبة الاسـتعداد لخوض معركة الحياة أو الموت . .

فمـا كان أحـد من المسلمين يتـصور أن تنتكس رايـة الإسلام . . وتصبح الحيـاة كما كانت عليه قبل المد الإســلامى . . وإلا فما ثمن الذين استشهدوا فى هذه المعارك؟

فما أكثر فداحة الثمن . .

لو عاد الحكم الرومـانى فسوف يـفرض ظلمه وجـبروته . . ولن يكتفى بالشام بل سوف يزحف نحـو معقل الإسلام نفسـه فى مـكة والمدينة . .

وسوف تعود الوثنية الفارسية تبشر من جديد بقيمها التى انهارت تحت سنابك الخيول العربية؟؟

أشياء لا يمكن أن تصدق أو يعقلها عقل.

لقد وجدت هذه القبائل أمام الصورة التى رأتها أن مصيرها قاتم غاية القتامة . . فآثرت أن تعود إلى خيامها وأماكن إقامتها . . متخلين عن وعودهم إلى الرومان . .

وجاء الجيوش الرومانية فوجدت أن هذه القبائل قد رجعت عن وعودها مؤثرة السلام . . وقرر أبو عبيدة أن يهاجم الروم . . وكم كانت سعادة خالد بن الوليد غامرة . . فهو رجل الحرب . . وهو الذى قرر أن يواجه الروم مهما كان الثمن . . واسم خالد يبعث فى نفوس الجنود الأمل فى النصر . . بل إن معركة فيها خالد بن الوليد فى رأى الجنود تأكيداً للنصر . . فلم يدخل معركة فى الجاهلية إلى الإسلام إلا وانتصر فيها . . أنه سيف اللَّه المسلول . . على حد تعبير النبى عليه الصلاة والسلام . . ووجد الرومان أنهم لا قبل لهم بجيوش المسلمين ففضلوا الفرار والعودة من حيث أتوا . . وانتهت بذلك أحلام قيصر الروم إلى الأبد فى العودة إلى الشام أو بيت المقدس . . انطفأت أحلامه وآماله . .

وواصل عمر بن الخطاب زحفه . . وعند الجابية . . جاءته الأنباء

بالصورة الجديدة . . والأوضاع الجديدة . . فقد فر الرومان . . وتقوقع المتمردون وطلبوا الصلح . . وأذعنوا للحكم الإسلامى . . وفقدوا أى أمل فى محاولة التآمر مرة أخرى على المسلمين.

وبهذا تمت إحكام قبضة المسلمين على الشام والعراق.

وإن كانت هناك حادثة فرضت نفسها على التاريخ . . واختلف الناس حولها كثيراً حول موقف عمر بن الخطاب من خالد بن الوليد . .

فقد حقق خالد للإسلام الكثير من الانتصارات المذهلة فى حروب الردة . . وفى الشام وفى العراق . . بل إنه كان العقل المدبر وراء هذه الانتصارات المذهلة التى وقف أمامها المؤرخون فى حيرة أزاء عبقرية خالد العسكرية . . وقد تحدثنا كيف عزل عمر خالد أثناء معركة اليرموك . . ولكنه حقق الانتصار فى هذه المعركة الخالدة كما أنه وهو جندى يعمل مع باقى الجنود تحت إمرة ابن الجراح حقق من الانتصارات الضخمة للإسلام ما يفوق الوصف . . بل إن البعض من المؤرخين كان يرى أنه لولا الخلاف الذى قام بين عمر وخالد لاستطاع خالد بن الوليد أن يهزم الروم هزيمة قاطعة . . وأن يسير وراء هرقل إلى معقله وراء.جبال أرمينيا ويدخل عاصمة ملكة نفسها كما دخل سعد بن أبى وقاص المدائن عاصمة كسرى . .

ولم يجد المؤرخـون تفسـيراً مقنعـاً من موقف عـمر بن الخطاب الشديد التصلب مع خالد . . ووجدوا فى موقفه منه أن عندما أعطى الأشعث بن قـيس عشرة آلاف درهم . . وجـاء الخبر إلى عـمر . . فأرسل إلى أبى عـبيدة أن يحاكم خالدا . . ويعـرف منه إذا كان هذا المال الذى أعطاه للأشعث من ماله أو من مـال المسلمين . . فإن كان من الغنائم فهى خيانة وإن كان من ماله فهو الإسراف . . بل إن الأمر زاد عن الحد عندمـا أمر عمر أبا عـبيدة أن يقيـد خالد بعمامـته . . ويعـزله بعد المحـاكمة . . وكـان بلال مؤذن الرسـول عليه الـصلاة والسلام هو رسول عمر إلى أبى عبـيدة بن الجراح أو واحد من البريد الذى أرسله عمر إلى ابن الجراح . . واحـتار أبو عبيدة . . هل يمكن أن يكون هذا جزاء خالد بعـد ما قدمه من أمجـاد للإسلام . . وبعد بلائه فى سبيل الإسلام؟؟

لم يجرؤ أبو عـبيدة أن يحـاكم خالد . . أو أنه استـحى أن يفعل ذلك. . وطلب من بلال أن يفض البـريد أمام خالد فى المسـجد. . وجلس أبو عبيـدة صامتاً . . وقد هزت خـالد المفاجأة . . فلم يكن يتصور أن يبلغ الأمر إلى هذا الحد . . وعلى شئ لا يستحق . . وقام بلال بتقييد خالد بعمامـته كما أمر عمر . . وزاد حزن خالد وارتسم الألم على وجه أبـى عبيـدة . . كما ارتسـمت علامـات الحزن على

الحاضـرين فى المسجـد . . فهل يمكـن أن يكون جـزاء خـالـد كل هـذه المهانة؟

إن الأمر فى غاية الخطورة؟

وأبو عبيـدة بن الجراح يخشى أن يحدث ما يعكر صفـو الحياة فى الشام أو ما يفسد الأمر كله . . فماذا يحدث لو تمرد خالد بن الوليد؟

لاشك أن هناك من الجنود من سوف يقف بجانبه؟

وأن هناك من المنبهرين بشجاعته الخارقة . .

وما حققه من انتصارات سوف ينضمون إليه؟ ماذا يحدث لو قاوم خالد . . وهو الذى يعتز بشخصيته إلى أقصى حدود الاعتزاز؟

إنه سبق أن كتب لعمر :

- إما أن تدعنى وعملى . . وإلا فشأنك وعملك .

ولم يقبل عمر من خالد هذا؟

لقـد صمت الجـميع وعلى رأسـهم أبو عـبيـدة . . وبلال يكرر السؤال على خالد . .

- ما تقول من مالك أم من إصابة؟

وقال خالد : من مالى . .

وفك بلال وثاقه . .

وخرج خالد من المسجد يعتصر الحزن قلبه . . لا بد أن خالد فكر كثيراً . . وآثر أن تكون رسالته فى الحياة هى الجهاد فى سبيل اللّه . . ولا يكون سبباً فى فرقة بين المسلمين . . وآثر أن تمر هذه العاصفة رغم ما تركته فى نفسه من جراح . . ولم يكن يدرى أنه عزل، ولم يكن يدرى أن عمر قد طالبه أن يعود إلى المدينة، ولكن ابن الجراح لم يخطر خالداً بذلك . . فكفاه ما لحقه من إهانة . ومرت الأيام . . واستبطأ عمر عودة خالد . . فأرسل إليه، ولام خالد أبا الجراح . . لماذا لم يخطره بأوامر عمر . . وعاد إلى المدينة . . وهناك عاتب خالد عمراً عما فعله به . . غير أن عمر قال له:

- يا خالد . . واللّه أنك لعلى خلق عظيم . . وإنك إلىَّ لحبيب ولن تعاتب بعد اليوم عن شئ أبداً.

ربما استراحت نفس خالد بعض الشئ من تلك الكلمات التى لا تدينه أنه خالف عمر بن الخطاب . . بل إن عمر أرسل إلى مختلف الأمصار يعلن للناس أنه لم يعزل خالداً لسبب إلا خوف أن يفتن الناس به . . أو يعتقدوا أنه حقق الانتصارات . . مع أن النصر من عند اللّه . . كتب إلى والاة الأمصار:

- إننى لم أعزل خالداً عن سخط أو خيانة . . ولكن الناس فتنوا به . . فخفت أن يوكلوا إليه ويبتلوا به فأحببت أن يعلموا أن اللّه هو الصانع . . وألا يكونوا بعرض فتنة . .

وتمضى الأيام . . يعيش خـالد بعيداً عن معـارك القتال . . وهو المولع بالجهاد . . ويموت بعد أربع سنوات . . لم يترك من متاع الحياة شيئاً سوى سلاحه وفرسه وغلام حتى أن عمر قال:

- يرحم اللّٰه أبا سليمان . . كان على غير ما ظننا به .

وقد حـزن عمر على موت خـالد . . ولم يذكره عمر إلا بالخـير طوال حياته . . ومـهما اختلف المؤرخون حـول الدوافع التى دفعت عـمـر أن يقـف هذا الموقف من خـالد . . فـإن الأيـام مـضت فى دورانهـا . . والتـاريخ سار فى طريقـه . . وبقـيت لنا من عـبق هذا التاريخ . . أن هؤلاء الصـحابة قـدموا للإنسانيـة صورا مشـرقة من الشجاعة . . والبعد عن الأنانية . .

فعـمر كان يتصـور أنه بهذا الموقف الذى وقفه من خـالد كان فى صالح الدعـوة . . وأنه لايريد أن يفتن الناس بشخص مهـما قدم لأن النصر من عند اللّٰه . . وأنه رغـم الخلاف الذى كان بين عمـر وخالد منذ أيام أبى بكر . . فقـد كان عمر لا يعـجبه زهو خالد بنـفسه . . رغم إيمانه بقدرته العسكرية . . وعبقريته فى ميدان القتال . .

ولم يشـأ خالد إلا أن يكون جندياً . . يأتى له أمـر أميـر المؤمنين فيقوم بتنفيذه . . ولا يريد أن يشق عصـا العصيان . . لقد قدم خالد عصارة جهده . . بل قدم حياته لخدمة الإسلام . . ومات حزيناً لأنه

كان يتـمنى أن يستشـهد فى ميدان القـتال . . وترك ذكراً عـريضاً لا تمحوه الأيام . .

وقد اختلف المؤرخون فى المكان الذى دفن فيه خالد . .

البعض قال أنه دفن فى حمص . . بعد أن أدى العمرة وزيارته أمه فى المدينة .

والبعض الآخر قال إنه ذهب لـلعمرة . . وزار أمه . . وفى طريق العودة إلى الشام مرض . . ومات فى المدينة ودفن بها . .

مهمـا تكن الروايات . . فقد مات خالد . . بعـد أن ترك سجلاً حافـلاً فى تاريخ البطولات الإسلامـية . . وأعطى صـورة للجندى المخلص . . حتى أن عمر عندما سمع أمه تندبه بقولها :

أنت خـيـــر من ألف ألف من

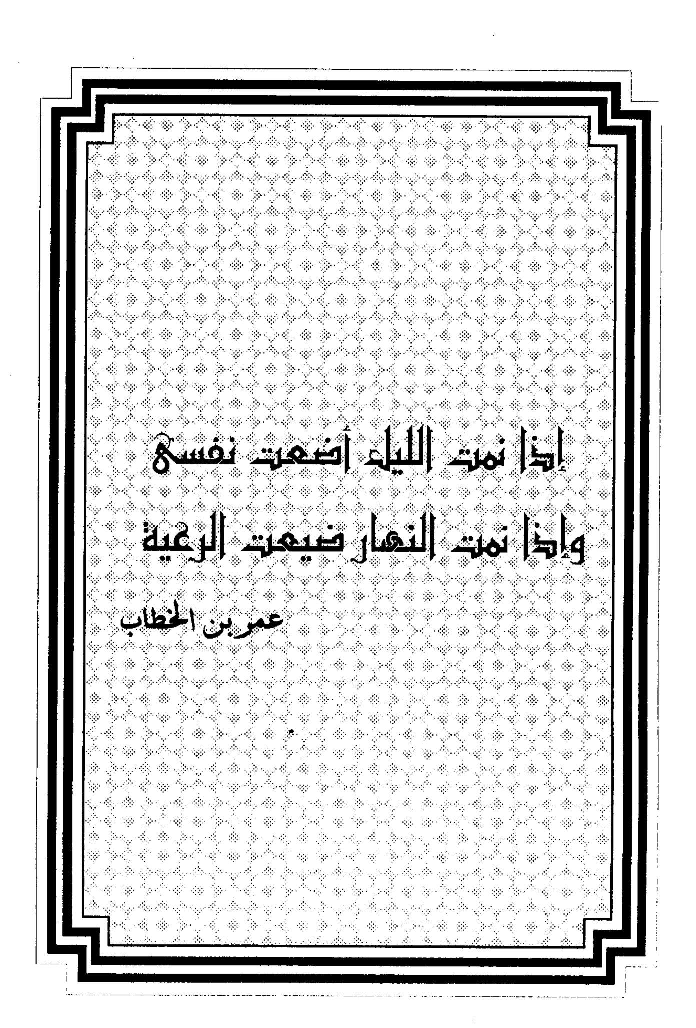
القوم إذا ما كبت وجوه الرجال

قال عمر : صدقت واللَّه إنه كان كذلك .

ومـضى التـاريخ الإسلامى يشـق طريقه فى أزهـى عصـوره . . وأنضرها . .

* * *




إذا نمت الليل أضعت نفسي
وإذا نمت النهار ضيعت الرعية
عمر بن الخطاب

أحزان عمر

لنمض مع الأيام . . فى رحلتنا مع أيام عمر بن الخطاب وعصره . . فنرى أنفسنا أمام عصر جديد . . انتشر فيه الإسلام بين ربوع العراق والشام ومصر وانتهى خلاله تقلص الإمبراطوريتين الرومانية والفارسية . .

وكان أمام عمر الكثير من المشكلات . . بل إن الذى يسرح بخياله إلى الوراء . . ويرى صورة العصر فى عصره . . سوف يشعر بمدى المسئولية الجسيمة الملقاه على عاتق أمير المؤمنين . .

مشكلات شخصية بينه وبين نفسه . .

ومشكلات عامة ترتبط بحقوق الناس التى تفرضها عليه مسئولية عمله كخليفة لرسول اللّه . .

إن مشكلاته الشخصية هينة على نفسه فقد رضى لنفسه حياة الكفاف . . والعيش فى شظف العيش رغم أنه ورث ملك كسرى وقيصر . .

ولكن المشاكل التى شغلته تماماً هى هموم الناس فعليه أن يحل مشاكل الناس المعيشية فى الجزيرة العربية . . فكان يعطيهم ما يصل

إليه من الغنائم وهى خمسهـا . . وأعطى الناس منها أعطيات قدرها حسب القرب من الرسول . . وحسب أسبقيتهم فى الإسلام وحسب بلائهم فى سبيل اللّه . . وهكذا . .

كما أنه كان عليه أن ينظم أمور الدولة فى البلاد التى يتم فتحها . . فهـو قد رفض أن يتملك العرب الفـاتحون الأرض . . بل إن الأرض يزرعها أصحابها . . كما كان عليه أن يقدم لهم مرتبات أيضاً كجنود لو توقفت المعـارك بينهم وبين الفرس والرومـان . . لأن هذه الغنائم سوف تتوقف . . ولكن القبائل المتحـاربة كانت قد ظهر عليها الثراء بالفعل من كثرة ما غنموا أثناء الحروب . . وكانت العملة السائدة هى عملـة الفرس فى البـلاد التى كان يسـتعمـرها الفرس . . والعـملة الرومانيـة فى البلاد التى كـانت تحت سيطرة الرومـان . . فهناك أذن مشاكل الإدارة وقيادة هذه الشـعوب . . ونشر الإسلام بالحسنى . . وعدم إكراه أحد على ترك دينه . . مشـاكل كثيرة اهتدى ابن الخطاب بفطرته السليـمة وحـزمه أن يضع حلولاً لهـا . . وأن يرسم نواة فى هذه المناطق على نمط سليم . .

غير أن هموم عمر زادت حدتها . . رغم أن الناس عاشت عصراً ذهبياً . . توفر فيه الأمن والأمـان والرخاء . . عندما حدثت كارثتان فى نهاية السنة الـسابعة عشـرة والثامنة عشـرة الهجريتـان. . عندما

أقفرت الأرض فى الجزيرة العربية وأصاب الناس كرب شديد . . فقد أمسكت السماء عن المطر . . فأجدبت الأرض . . وهلك الزرع والحيوانات . . وشعر الناس بالفاقة تهز كيانهم . . وزحف البدو من الصحراء فامتلأت بهم مدينة الرسول . . وزحفت القبائل من كل صوب وحدب طالبين الغوث . .

أما الحدث الثانى الذى هز عمر . . وزادت من أحزانه فهو طاعون عامواس الذى انتشر فى الشام والعراق . . وحصد خمسة وعشرين ألفاً من المسلمين . . من بينهم أبو عبيدة بن الجراح . . ويزيد بن أبى سفيان . . وكان هذا الحدث الثانى عقب عام المجاعة . . أو عام الرمادة . . كما أطلقوا على هذا العام . .

بالنسبة لعام المجاعة . . أحس الناس بالجوع والفاقة والحرمان بعد أن ظلت الأمطار تسعة أشهر لا تعطى قطرة ماء لأرض الجزيرة العربية . . يومها وجد عمر نفسه أمام مشكلة اجتماعية خطيرة . . فعمر الرقيق القلب لا يمكن أن يتحمل رؤية الناس يهلكون من جوع . . ناهيك عن بكاء الأطفال . . ولوعة النساء . . ولهفة الأولاد . . وجوع الكبار . . فأرسل إلى ولاته فى الشام والعراق أن يبعثوا إليه على وجه السرعة ما يحتاجون إليه . . وبسط بنفسه الولائم التى كانت تتسع لآلاف من البشر . . وكان يأكل معهم . . ويرسل

للقبائل البعيدة ما تحتاج إليه من غذاء . . وضرب هو نفسه أروع المثل عندما كان يأكل بالزيت . . ولا يتناول اللحم أو اللبن حتى أسود وجهه . .

وما أكثر صلاة عمر فى ليالى تلك السنة . . خوف أن يهلك الناس فى عصره . . بل طلب من الناس أن يخرجوا لأداء صلاة الاستسقاء ورفع عمر يده إلى السماء . . يطلب من اللّه الرحمة . . ثم طلب من اللّه وهو يأخذ بيديه العباس عم النبى عليه الصلاة والسلام أن تمطر السماء بحق قرابة العباس للنبى عليه الصلاة والسلام وهو يقول :

« اللهم إنا نستشفع بعم رسولك إليك » . .

ولم تكد الصلاة تنتهى حتى امتلأت السماء بالسحب . . ونزلت الأمطار غزيرة . . تبعث الحياة فى الصحراء الجدباء . . وتعيد موات الأرض إلى الحياة وشكر عمر ربه من أعماق قلبه . .

ولم يكد يمضى هذا العام . . حتى انتشر الطاعون . . فى فلسطين . . ومنها انتقل إلى سورية والعراق . . ولقد كان عمر قد توجه إلى الشام يحاول أن يحل مشاكله ويرتب أموره . . وقد التقى عند (تبوك) بأبى عبيدة بن الجراح وبعض كبار الصحابة . . وأخبره أبو عبيدة بأمر الطاعون المنتشر . . وبرزت أسئلة كثيرة فى ذهن

الصحابة . . ترى هل يواصل عمر رحلته إلى الشام ويتعرض للمرض الخطير . . أم يعود أدراجه إلى عاصمة الخلافة فى المدينة . . واستشار أصحابه . . وجنح إلى الرأى الذى يطلب منه العودة إلى المدينة . . حتى أن أبا عبيدة نفسه اندهش لهذا القرار من عمر وسأله :

- أفراراً من قدر اللّه يا عمر؟ . .

- نعم فراراً من قدر اللّه إلى قدر اللّه . .

ثم عاد فقال له :

- أرأيت لو أن رجلاً هبط وادياً له عدوتان إحداهما خصبة والأخرى جدبة أليس يرعى من يرعى الجدبة بقدر اللّه . . ويرعى من يرعى الخصبة بقدر اللّه ؟ .

ويبدوا أن أبا عبيدة الجراح لم يقتنع بكلام عمر . . لأنه رفض أن يترك جنده ويعود إلى المدينة عندما طلب منه عمر ذلك فيما بعد . . وعرف أن عمراً ما استدعاه إلا ليبعده عن الوباء . . فظل بين جنوده إلى أن أصابه الطاعون ومات به . .

رغم أن عبدالرحمن بن عوف ذكر أمام عمر وأمام المسلمين فى تبوك حديث رسول اللّه ﷺ :

« إذا سمعتم بهذا الوباء ببلد فلا تقدموا عليه . . وإذا وقع وأنتم به فلا تخرجوا فراراً منه» .

وقد توفى بالطاعون معاذ بن جبل الذى ولاه أبو عبيدة بدله، وعندما تولى عمرو بن العاص الأمر طلب من رجاله الصعود إلى الجبال العالية حيث الهواء.. والبعد عن الوباء.. إلى أن ينتهى هذا الوباء القاتل.. ولا أحد يدرى السبب فى هذا الوباء الخطير الذى اجتاح هذه المنطقة من العالم.. وإن أرجعه البعض من المؤرخين إلى أنه كان بسبب كثرة الجثث التى تركت فى ميادين القتال.. وما أن انتهت هذه المأساة حتى قرر عمر الذهاب إلى الشام من جديد.. وحل المشاكل التى نجمت بين صفوف المسلمين عقب هذا الداء القاتل.. وترك أمر المدينة لعلى بن أبى طالب وجعل (الجابية) مقراً له.. وأمر أن يتولى معاوية بن أبى سفيان حكم سورياً بدلاً من أخيه يزيد الذى مات بالطاعون.. ثم نظم المواريث لأولاد الذين ماتوا من الطاعون.. كما نظم أمور الدولة فى الشام وأمر بإحكام القبضة على الثغور..

وكانت رحلة الشام هذه هى آخر رحلات عمر بن الخطاب خارج بلده..

وعندما قرر العودة إلى المدينة طلب الناس منه أن يطلب من بلال ابن رباح مؤذن الرسول أن يؤذن للصلاة.. وكان بلال قد ترك ذلك منذ وفاة النبى عليه الصلاة والسلام.. وما كاد صوت بلال يرتفع

بالأذان وتردد صداه فى أجـواء الشام حتى تذكر صحـابة رسول اللَّه أيام الرسول عليـه الصلاة والسلام . . فإذا بهم يبكون . . وإذ بـعمر قد تذكر محـبيبه وصفـيه عليه الصلاة والسلام فـبكى بكاء حاراً حتى بللت الدمـوع لحـيتـه الكثـة . . إن هذا الصـوت الذى طالما هز المشـاعـر . . ونبى الإسـلام يملأ جوانب الحـيـاة . . يذكـره بأعظم شخـصية عـرفها الوجـود . . وهو يبشرة بدعـوة الإسلام . . تلك الدعوة التى انتشرت وتحقـقت نبوءات النبى عليه الصلاة والسلام بأن المسلمين سيرثون ممتلكات كسرى وقـيصر . . وكانت هذه النبؤة أثناء غزوة الأحـزاب . . ففى الوقت الذى بلغت فيـه القلوب الحناجر . . وقـد تألبت القـبـائل على المـسلمين من الخـارج . . واليـهـود من الداخل . . وكان المسلمون يحفرون الخـندق . . وعجز بعضهم على كسر حجر اعترضـهم . . فأخذ الرسول العظيم بالفأس . . وضرب الحجر ثلاث ضربات وقال :

« بسم اللَّه . . »

وضرب ضربة فكسـر ثلثها وخرج منها نور من ناحـية اليمن . . فكبر النبى عليه الصلاة والسلام وقال :

« أعطيت مفاتيح اليمن . . لأنى أبصرت أبواب صنعاء من مكانى الساعة كأنها أنياب الكلاب» .

وضرب الضربة الثانية فقطع ثلثاً آخر . . وخرج الوهج من ناحية الروم فكبر عليه الصلاة والسلام وقال:

« أعطيت مفاتيح الشام واللَّه إنى أبصر نورها وقصورها» .

وضرب الضربة الثالثة فتفتت الحجر وخرج وهج فكبر عليه الصلاة والسلام وقال:

« أعطيت مفاتيح فارس . . واللَّه إنى لأبصر قصور الحيرة ومدائن كسرى كأنياب الكلاب من مكانى هذا» .

فى هذا الوقت أخذ المنافقون ينظرون بعضهم إلى بعض . . ويتعجبون من قول النبى عليه الصلاة والسلام . . إذ يعد المسلمون بممتلكات كسرى وقيصر وهم يبنون خندقاً يحتمون به من الأحزاب التى جاءت لقتال النبى عليه الصلاة والسلام . .

ذكريات . . يفوح منها عطر النبوة . .

يومها دعا جابر بن عبداللَّه النبى عليه الصلاة والسلام إلى منزله . . فقد ذبح له شاة صغيرة . . ولكن النبى دعا جميع الصحابة . . وارتبك جابر . . إنها شاة صغيرة لا تكفى هذا العدد الهائل من المسلمين . . ولكنه آثر الصمت . . وأخذ يردد فى خوف:

« إنا للَّه وإنا إليه راجعون» .

ولكن المسلمين مع الرسول الكريم أكلوا حتى شبعوا ببركة النبى عليه الصلاة والسلام . .

وها هو وعد الرسول يتحقق؟

وها هو عمر يستمع إلى بلال يؤذن بصـوته الجميل فيذكر المؤمنين بذكرى السيرة العطرة للنبى عليه الصلاة والسلام . .

وها هو الإسلام قد ورث ملك كسـرى وقيصر . . وارتفعت راية الإسلام على ملكهـا . . كما عم نور الإسلام اليمـن . . لقد كانت الدمـوع التى ذرفـها المؤمـنون وهم يتذكـرون أمـجـد أيام اللَّه على الأرض . . تذكرهم بأيام رسول اللَّه . .

وعـاد عـمـر إلى المدينة . . ويمضـى التـاريخ ليـسـجل أروع الصفحات . .

* * *



آمن عمر الكريم بربه وبسيفه الذي هز به عروش الأكاسرة والقياصرة، ولكنه عندما قارن بين قوة المسلمين الضئيلة وبين عظمة المشروع الذي أقدم عليه ندم على تسرعه .. وكان كل من يقرأ القرآن يعرف ما كان عليه فرعون من عظمة وكبرياء .. وكانت مدن مصر آهلة بالسكان .. ووافرة العدد .. وكانت أبنيتها قوية وثابتة.. وكان لابد أن تدافع قوات الرومان دفاعا عنيدا أهراء رومة

المؤرخ جيبون



فتـح مصر

كانت منتـهى أحلام عمـرو بن العاص أن تصبح مـصر خاضـعة للفتـح الإسلامى . . فقـد زارها للتجـارة فى الجاهليـة . . ويعرف الكثير عن أهلها وعاداتهم وتقـاليدهم . . وطالما هزته مناظر الخضرة فيها . . وجمـال الحياة بها . . وكثرة خيراتهـا . . بجانب ما تمتاز به من جمال طبيعى فائق . . فالنيل يجـرى وسطها يحولها إلى ما يشبه الحديقة البالغة الروعة والجمال .

وهو يعرف أيضـاً أن لمصر تاريخـاً طويلاً مجيـداً . . وأن فراعنة مصر كانوا سادة الدنيـا . . وطالما خرجت جحافلهم لتؤدب من يريد أن يعتدى على تلك الأرض البالغة الثراء . . البـالغة قمة الحضارة فى عصور مختلفة من التاريخ . .

كانت منتهى آمـال عمرو بن العاص . . أن يفـتح مصر . . وأن ينتشر فـيها نور الإسلام . . كمـا أنه يعرف مدى الأهميـة القصوى لسيطرة العرب عليهـا . . وإلا ظل الخطر الرومانى يهدد المسلمين فى فلسطين والعراق . .

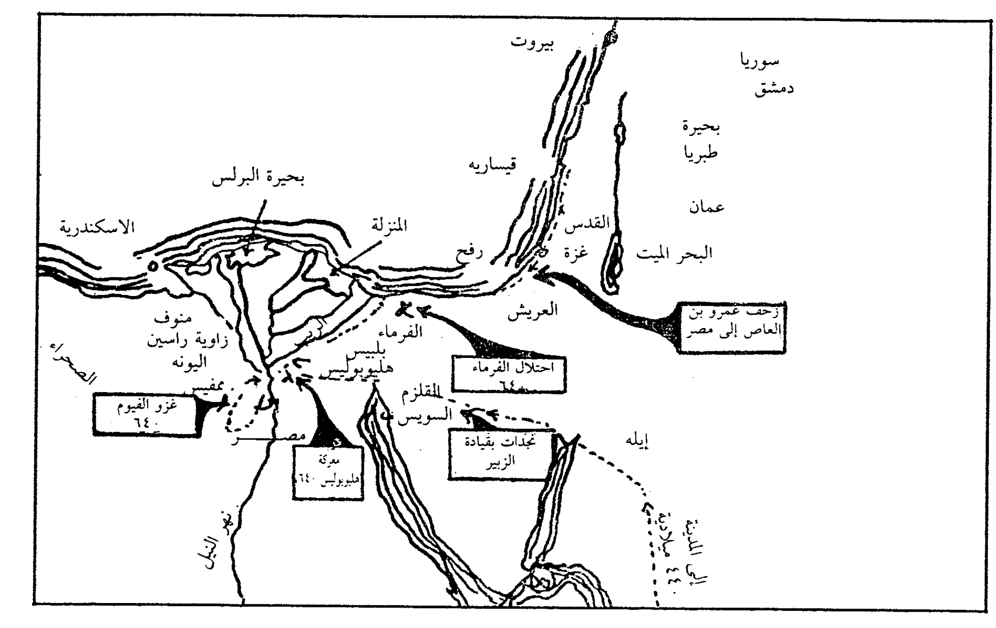
فالغزو الأخـير الذى تعرض له الشام . . بعـد محاولة تمرد سكان

الجزيرة على الفتح الإسلامى وإرسالهم لهرقل طالبين المدد . . كانت النجدات تأتى عن طريق الاسكندرية إلى ثغر أنطاكية . . فالخطر الرومانى سيظل قائماً ما دامت مصر فى قبضة الرومان . .

وأسر عمرو بن العاص برغبته تلك للخليفة عمر بن الخطاب . . وقيل أن عمر كان متردداً فى السماح لعمرو بالتوجه إلى مصر . . وقيل أنه وافق على أن ينتظر رسالة منه . . فإذا جاءته هذه الرسالة قبل دخول أرض مصر فليرجع حالاً إلى فلسطين . . واستشار عمر كبار الصحابة فى المدينة . . ووافقوا على أن يتجه عمرو بن العاص إلى مصر . . وسار عمرو ومعه ثلاثة آلاف وخمسمائة جندى فى الطريق إلى مصر . . وسلك نفس الطريق بجانب الساحل الذى سلكه الفراعنة فى حملاتهم ضد حكام فلسطين . . ونفس الطريق الذى سار فيه الفرس والرومان وهم متجهون إلى مصر . . وهو أيضاً نفس الطريق الذى سلكه خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام، ويعقوب واخوه يوسف فى طريقهم إلى أرض مصر . . اليانعة الخضرة والظلال . .

ولكن المشكلة أن عدد الجيش الإسلامى قليل جداً إذا ما قورن بقوة الروم . . ولكن عمراً كان يعرف أن هناك خلافات بين المصريين وبين الرومان . . وأن المصريين ما زالوا يذكرون الأهوال التى تعرضوا

غزو مصر



بيروت
سوريا
دمشق
بحيرة
طبريا
قيساريه
بحيرة البرلس
الاسكندرية
المنزلة
عمان
القدس
رفح
غزة
البحر الميت
العريش
زحف عمرو بن العاص إلى مصر
منوف
الفرماء
زاوية راسين
بلبيس
اليونه
احتلال الفرماء ٦٤٠
هليوبوليس
منفيس
القلزم
غزو الفيوم ٦٤٠
السويس
مصر
إيله
نجدات بقيادة الزبير
معركة هليوبوليس ٦٤٠
نهر النيل
الصحراء

لها فى مصر نتيجة لإضطهاد الرومان لهم . . نتيجة لاختلاف المذهب الذى يدين به المصريين عن المذهب الذى يعتنقه الرومان . . فقد أراد هرقل أن يوحد المذاهب المسيحية التى كانت منقسمة ما بين أرثوذكسية ويعقوبية (قبطية) ونسطورية . . وأن يصبح المذهب الجديد (مذهب الطبقة الواحدة) . . والذى يحاول التوفيق فيه بين المذهب الأرثوذكسى واليعقوبى . . هو المذهب الذى يدين به أقطار العالم الرومانى . . ولكن قساوسة مصر رفضوا ذلك وهرب بنيامين بطريق الأقباط فى مصر إلى الصحراء . .

وزاد المقوقس من اضطهاد المصريين . . بل إنه قبض على متياس شقيق بنيامين وعذبه عذاباً شديداً حتى يؤمن بالمذهب الجديد، وعندما رفض ألقى به فى النيل . .

لقد رفض المصريون مذهب الأرثوذكسية . . متمسكين بعقيدتهم اليعقوبية . . رغم ما لقوه من اضطهاد روما . . كل هذا زرع فى قلوب المصريين الحقد على روما . . وكل هذه العوامل . . جعلت انتصار عمرو بن العاص على الروم مؤكداً . . لأن المصريين يقفون بجانبه . . أو على أقل تقدير لن يقفوا بجانب الروم . .

وتقدم عمرو حتى وصل إلى حصن بابليون المنيع وحاصره . . وأرسل إلى عمر بن الخطاب يطلب النجدة . . وكان عمرو قد دخل

إلى الأراضى المصرية فى العاشرة من ذى الحجة سنة ثمانى عشرة هجرية . . وجاء المدد بعد شهور بقيادة الصحابى الزبير بن العوام على رأس اثنى عشر ألف رجل . . وكان معه عبدالله بن عمر . . وحاصر المسلمون القلعة . . وكان بها المقوقس وحامية رومانية ضخمة . . وقد استطاع المقوقس أن يهرب من الحصار إلى جزيرة الروضة . . ثم بعث برسالة إلى عمرو بن العاص يطلب المفاوضة . . ولكن عمر خيره بين القتال أو الجزية أو الدخول فى الإسلام . . ولم يستمع عمرو إلى تهديدهم . . أو إغراء المقوقس له بأن يدفع للمسلمين مبلغاً كبيراً من المال نظير الانسحاب من مصر . . لقد خيره عمرو بالدخول فى الإسلام فيصبح له ما لهم وعليهم ما عليه . . أو دفع الجزية . . أو الحرب . . وأذعن المقوقس لرغبة عمرو . . ووافق على دفع الجزية . . ولكن بعد موافقة هرقل نفسه . . وسافر إلى القسطنطينية حيث قابل الإمبراطور . . الذى أوهنت قواة السنين . . والهزائم المتكررة . . ورفض هرقل هذا الصلح المهين . . وعزل المقوقس ونفاه . . بينما شدد المسلمون الحصار على حصن بابل . . وبعد سبعة أشهر من الحصار قرر الزبير ابن العوام أن يعتلى أسوار الحصن . . وأن يستشهد فى سبيل الله . . ونجح بالفعل فى التسلل إلى الحصن . . وجاءت الأنباء بوفاة هرقل . . وكانت حامية الحصن قد ملت الحصار الطويل . .

فاستسلمت . . واحتل المسلمون القلعة . . (فى ابريل سنة ٦٤١م) وكان لا بد لعمرو بن العاص أن يواصل زحفه بعد أن سقط حصن بابليون وبعد هزيمة الرومان فى هليوبولس بقيادة الرومانى تيودور . . واتجه عمرو بن العاص صوب الاسكندرية . . وكانت هناك معارك فرعية فى الطريق منها معركة (كوم شريك) التى سميت باسم قائد الكتيبة العربية المتقدمة (شريك بن الحارث) وانتصر فيها العرب كذلك وواصل عمرو زحفه نحو الاسكندرية . .

وكانت الاسكندرية التى بناها الاسكندر المقدونى قد بلغت ذروة الحضارة . . وعدد سكانها يقترب من المليون . . مدينة زاهرة مترفة . . متحضرة . . بل اعتبرها البعض من أرقى مدن العالم فى ذلك العصر . . واستطاع عمرو بن العاص أن يحتل المدينة بعد حصار طويل . . وكان ذلك فى شهر سبتمبر عام ٦٤٢ . . وبذلك دخلت مصر فى حوزة الإسلام . . وانتهت إلى الأبد الأطماع الرومانية فيها . . وقد رحبت مصر بهذا الفتح الذى لم يفرض عليهم ديناً . . ولم يتدخل فى عقيدتهم . . بل كان التسامح وعدم التعصب أهم مميزاته . . مما دفع عدداً كبيراً من المصريين إلى الدخول فيه . . وبعث عمرو إلى عمر بن الخطاب بهذا النصر العظيم . . فأحس عمر بالسعادة . . وقام يصلى للَّه شاكراً . .

وقد أورد (الطبرى) نص معاهدة الصلح بين المصريين:

« بسم اللّه الرحمن الرحيم . . هذا ما أعطى عمرو بن العاص أهل مصر من الأمان على أنفسهم ودينهم وأموالهم وكنائسهم وصلبهم وبرهم وبحرهم لا يدخل عليهم شئ من ذلك . . ولا ينتقص ولا يساكنهم النوب . . وعلى أهل مصر أن يعطوا الجزية إن اجتمعوا على هذا الصلح . . وأنهت زيادة نهرهم خمسين ألف ألف درهم . . وعليهم ما جبى لصونهم . . فإن أبى أحد منهم أن يجيب رفع عنهم من الجزاء بقدرهم . . وذمتنا ممن أبى بريئة . . وأن نهرهم من غايته إذا انتهى رفع عنهم بقدر ذلك . . ومن دخل فى صلحهم من الروم والنوب فله مثل ما لهم وعليه مثل ما عليهم . . ومن أبى واختار الذهاب فهو آمن حتى يبلغ مأمنه . . أو يخرج من سلطاننا عليهم ما عليهم أثلاثاً . . فى كل ثلث جباية ثلث ما عليهم . . على ما فى هذا الكتاب عهد اللّه وذمة الخليفة أمير المؤمنين وذمم المؤمنين . . وعلى النوبة الذين استجابوا أن يعينوا بكذا وكذا رأساً وكذاً وكذا فرساً . . على ألا يغزو ولا يمنعوا تجارة صادرة ولا واردة . . شهد الزبير وعبد اللّه ومحمد وكتب وردان وحضر» .

وهكذا بدأ الحكم الإسلامى فى مصر . .

وهكذا تحققت نبوءة النبى عليه الصلاة والسلام إذ قال:

« إن اللّه سيفتح عليكم مصر . . وأوصيكم خيراً بقبطها فإن لهم مودة ورحمة من عهد الخليل إبراهيم عليه السلام».

وفى المدينة كان الخليفة عمر بن الخطاب فى انتظار أخبار الجيش الإسلامى فى مصر . . وجاءته الأنباء بالنصر عندما أخبره بذلك معاوية بن خديج . . وقام من فوره إلى المسجد حيث صلى صلاة الشكر للّه . . وصلى صلاة الغائب على أرواح الشهداء من المسلمين . . وأمر عمرو بن العاص أن يتولى أمر مصر . . وكان أول ما تداعى إلى ذهن القائد المنتصر أن يبنى عاصمة لحكمه . . واختار الفسطاط . . أو المكان الفسيح بجانب حصن بابليون الذى شهد انتصاره على الرومان . . حيث أقام فسطاطه . . وعلى الفسطاط كانت هناك حمامة تنام فوقه باطمئنان . . فاستبشر عمرو بذلك . . وأمر بإقامة المدينة الجديد فى هذا المكان . . وبناء على أوامر عمر بن الخطاب أن يقام فى المدن الإسلامية مسجد جامع . . ومن هنا فقد شرع عمرو بن العاص بإقامة المسجد المعروف باسمه حتى اليوم . . ولم يكن طبعاً عند بنائه بهذه الضخامة . . بل كان مسجداً بسيطاً متواضعاً . . أنشئ عام ٢١ هـ (٦٤٢م) . . فَقُد وسوّر بجدران عادية . . وكان له ستة أبواب . . اثنان منها يقابلان دار عمرو بن العاص . . ثم له باباً من الناحية الغربية وآخران من الناحية البحرية . . أما أعمدته فكانت من جذوع النخيل وسقفه من

الجريد . . وكان هذا يعنى استقـرار الحكم الإسلامى . . والمسجد لم يكن مكاناً للصلاة فقط . . بل أيضاً كان مكاناً لحل مشاكل الناس . .

ولقد عـلم عمر بـن الخطاب بأن عمـرو أقام فى مـسجده منـبراً يخطب فوقه . . فأرسل إليه هذه الرسالة التى تدل على حرص عمر على عدم إشعار أحد بأن هناك من هو فوقه فالكل أمام اللَّه سواء:

« أما بعـد . . فإنه بلغنى إنك أتخذت منبـراً ترقى به على رقاب المسلمين . . أمـا حسـبك أن تقوم قـائماً والمسلمين تحت عـقبـيك؟ فعزمت عليك إلا كسرته».

وجاءت هذه الرسالة إلى عمرو . . فازاح المنبـر جانبه تلبية لرغبة أمير المؤمنين . .

وباستقرار الإسلام فى مصر . . تغيرت معالم الصورة فى المنطقة كلها . . فـالعدل الذى اتسم به المسلمون . . وحرصـهم على إتاحة الحـرية الدينية أمـام الناس وأمام تـسامـحهم . . جـعل الكثيـر من المصـريين يدخلون فى الإسـلام . . وفى الوقت الذى تمكن وكـرس عمـرو بن العاص جـهده لإصـلاح الأحوال الاقـتصاديـة لمصر . . وتنظيم أمورها وخاصة فيما يتـعلق بالرى . . كان أمير المؤمنين عمر ابن الخطاب فى المدينة ينظم شئون الامـبراطورية الجديدة على أسس واعية مستنيرة لا تتاح إلا لأكبر العباقرة . . بفطرته السليمة . .

ولعل عـمرو بـن العاص كـان يجلس فى عـاصمـة حكمـه فى الفسطاط . . وقـد آل إليه حكم مصـر . . مصر العظيـمة بتاريخـها وآثارها وثرواتها . . حتى أن فـرعون موسى كان يفـتخر بأنه يحكم مصر التى لها كل هذه المميزات . .

﴿ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٥١) ﴾ [الزخرف: ٥١]

وأين لعمرو بن العاص أن يكون فى هذه المنزلة لولا الإسلام؟

لطالما حارب الإسلام والمسلمين . . بل وذهب بنفسـه إلى الحبشة ليقابل النجاشى ويؤلبه على المسلمين . . ولكنه عاد بخفى حنين . .

ثم حارب المسلمين فـى معركـة أحد . . وفى معـركة الخندق هو وخالد بن الوليد . . ولكن اللَّه نصر رسوله . . وأعز جنده . . وهزم المشركين والكـفار . . وارتفعت راية الإسـلام . . ووجد عـمرو بن العاص نفـسه يتـجه إلى النبى الكريم فى المـدينة ليعلن إسـلامه . . وكذلك فعـل خالد بن الوليد . . وأصبح كل منهـما له دوره العظيم فى الفتوحات الإسلامية . .

لا شك أن عمـرو بن العاص يذكر ذلك كله . . يتذكـر أيامه فى الجاهلية . . وأيامـه مع رسول اللَّه ﷺ . . وكيف ولاه النبى قـيادة الجيش فى معركة ذات السلاسل وانتصر فيها . .

وفى عهد أبى بكر كان أحد قادة المسلمين الذى وكل إليه الصديق محاربة المرتدين وذهب إلى فلسطين لمحـاربة الرومان . . وكان قائداً للميمنة فى مـعركة اليرموك الخـالدة . . وكان بطل (أجنادين) وفتح بيت المقدس . . تاريخ عظيم . . ومكانة عظيمة رفـعه الإسلام إليها وهو على رأس مصر . . التى كان فرعون مـصر يتباهى بخيراتها . . وما فيها من نعيم . .

ولا بد أن أصداء حديث رسول اللَّه ﷺ قد تداعت إلى ذهن ابن العاص . . وقد تحققت نبؤة النبى عليه الصلاة والسلام على يديه :

« ستفتحون بعـدى أرضا يذكر فيها القيراط . . فإذا افتـتحتموها فاستوصوا خيراً بأهلها . . فإن لهم نسباً ورحماً» . .

ومعروف أن مصر كانت تستخـدم (القيراط) كمقياس للأرض . . أما النسب . . فـهى هاجر المصـرية . . أم إسماعـيل وزوجة خليل الرحمن إبراهيم عليهما السـلام . . أما الصهر فزواج النبى من مارية القبطية التى انجبت له ابنه إبراهيم . .

صورة فى غـاية الإشراق تلك التى تداعت على خيال عـمرو بن العاص . . إنه يرسل لأمير المؤمنين عـمر بن الخطاب فى المدينة رسالة يصف فـيهـا أرض الكنانة . . وصـفاً فـى غاية الدقـة والإبداع . . وجمال العرض . . وروعة التصوير . .

« تربة غبراء . . وشـجرة خضراء . . طوالها شهـر . . وعرضها شهر . . يكنفها جبل أغبر ورمل أصـفر . . يخط وسطها نهر ميمون الغذوات مبـارك الروحات . . يجرى بالزيادة والنقصـان . . كجرى الشمس والقمر له أوان . . تظهر به عيون الأرض وينابيعها . . حتى إذا أصلح عجاجه وتعظمت أمـواجه . . لم يكن وصول بعض أهل القرى إلى بعض إلا فى حـناق القارب . . وصغـار المراكب . . فإذا تكاملت تلك كـذلك نكص على عقبـيه . . كأول مـا بدأ فى شدته وطمى فى حـدته . . فـعند ذلك يخـرج القـوم ليـحـرثوا أوديتـه وروابيه . . يبذرون الحب ويرجون الثمار من الرب . . حتى إذا أشرق وأشرف سقاه من فوقه الندى . . وغذاه من تحته الثرى . . فعند ذلك يدر حلابه . . ويغنى ذبابه . .

فبينما هى يا أمير المؤمـنين درة بيضاء إذا هى عنبرة سوداء . . فإذا هى زبرجدة خضراء . . فتعال اللّه الفعال لما يشاء» . .

* * *

لقد استقرت مصر تحت نعمة الحكم الجديد . .

وشهدت البــلاد تغيرات كثيرة . . وأبطل عــمر بن الخطاب عادة سخيفة كــانت متوارثة منذ أيام الرومان . . وهى أن يلقى بالنيل كل عام فتاة بكر حــتى يفيض النهر . . وأخبر عمــرو أمير المؤمنين بهذه العادة الرتيــبة . . التى كان لها ســبب طريف . . وهو أن أحد حكام الرومان كان قد أحب مصــرية . . وأراد الزواج منها . . فلما رفضت خيرها بين أن تتزوجه أو تكون عروساً للنيل . . وفضلت الموت غرقاً على أن تتزوجه . . وأصبحت عادة لدى المصريين . . إلى أن أبطلها عمر . . فقد كتب عمر رسالة وأمر عمرو بن العاص أن يلقى بها فى النيل بدل الفتاة . . وفى هذه الرسالة كتب :

« بسم اللَّه الرحمن الرحــيم . . من عبد اللَّه (عــمر بن الخطاب) إلى نيل مصر المبارك أما بعد . . فإن كنت تجرى من عندك فلا تجر . . وإن كان اللَّه تعــالى الواحد القــهار هو الذى يجريك . . فــنسأل اللَّه تعالى أن يجريك» .

ويحكى لنا التاريخ أنه عقب القاء هذه الرسالة ارتفع منسوب المياه فى صبيحة اليوم التالى . .

إن الأحداث تجرى بسرعة مذهلة . . فالإسلام ينتشر بسرعة البرق فى مختلف أنحاء العالم . . فقد استقرت أوضاع المسلمين فى العراق

وسـورية ومصـر . . وكانت منتـهى أحـلام أميـر المؤمنين عمـر بن الخطاب أن تستتب الأمور . . وتقف عند هذا الحد . . وتقف المعارك بينه وبين الرومان والفرس . . صحيح أن هرقل الروم قد هزم وهرب إلى القسطنطينيـة . . ويزدجرد فر هارباً إلى سـهول إيران . . ولكن من الممكن لهـما أن يـحشـدا الجيـوش . . ويناوشـا الإمبـراطورية الجـديدة . . إنه يريد أن ينشـر الأمن والأمـان والعدل والرخـاء . . ويشعر الجمـيع بعظمة الإسلام . . ومبادئ الإسلام . . فـينتشر بين القلوب . . ويحـقق بذلك عالميـة الإسلام . . كـما بشـرهم بذلك محـمد بن عـبدالله عليه الصـلاة والسلام . . ومن كـان يصدق أن تتحقق أحلام المسلمين بهذه السرعة؟؟

فلم تمض على وفاة رسول الله سوى شهور قليلة حتى كانت قافلة النور تشق طريقـها تبشـر بقيم الإسلام أمما طـالما عاشت تحت وطأة الظلم والقسوة والجحود . . بجـانب عيشهم فى ضلالات الفكر . . وتيه الوثنية والشرك والإلحاد؟؟

وهناك فى مصـر . . لم تكد تمضى سوى عـشر سنوات . . على رسـالة النبى عليـه الصلاة والسـلام إلى المقـوقس عظيم القـبط فى مصر . . والذى حـملها حاتم بن بلتعه . . حتى كـان جيش الإسلام يطأ هذه الأرض ويحولها إلى الإسلام . .

ولا بد أن هذه الصورة تداعت إلى خيال جنود المسلمين . . وهم يعيشـون على أرض مصر . . أن حاطب يجئ إلى مـصر . . ويقابل المقوقس ويسلمه رسالة محمد بن عبداللّه وهذا هو نصها :

« بسم اللّه الرحمن الرحيم . . من محمد بن عبداللّه ورسوله إلى المقوقس عظيم القبط . . سلام عـلى من اتبع الهدى . . أما بعد . . فإنى أدعوك بدعاية الإسـلام . . أسلم تسلم يؤتك اللّه أجرك مرتين فإن توليت فـعليك إثم القبط . . ﴿ **قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ** (٦٤) ﴾ [آل-عمران:٦٤]

لقد استقبل المقوقس رسـالة النبى عليه الصلاة والسلام . . وسأل حـاطب عن الرسالة والرسـول واسـتمع منه كـل ما قـاله عن النبى ورسالتـه . . وكيف أخـذ ينشر دعـوة الإسلام . . وكيـف اضطهد المسلمون إلى أن هاجـروا إلى المدينة . . ودخلوا معارك ضـد الشرك وحققوا انتصارات تلو انتصارات . .

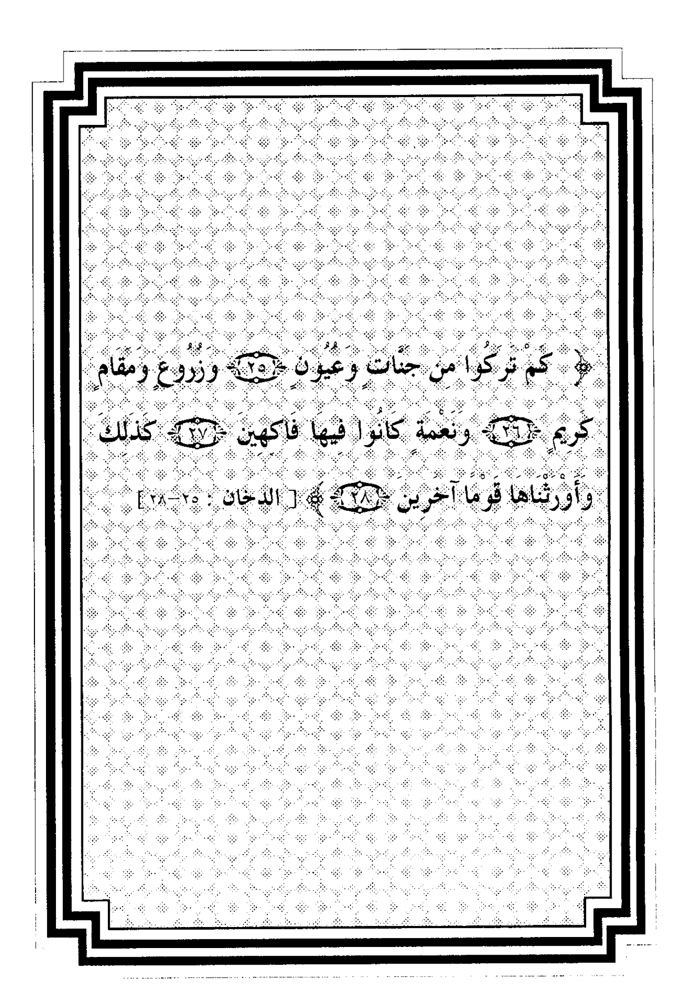
استـمع المقوقس إلى كل هذا . . وانصت إلى رسـول اللّه . . ثم أمر بأن يسـتضيفـه وأرسل معه من أراه مـعالم الاسكندرية عاصـمة مصر الرومانيـة ورأى حصونها . . كما رأى شواطئـها . . كما رأى

منارها العظيم . . وعاد إلى النبى عليه الصلاة والسلام ومعه هدايا المقوقس مارية القبطية التى تزوجها النبى عليه الصلاة والسلام ، وأنجب منها ابنه إبراهيم وقد أسلمت . . كذلك اختها (سيرين) التى تزوجها شاعر النبى عليه الصلاة والسلام حسان بن ثابت . . كما كان من بين الهدايا أقمشة مصرية وعسل نحل . .

ورسالة رقيقة من المقوقس . . وتمضى الأيام . . وينتقل الرسول إلى الرفيق الأعلى . . بعد أن أتم الرسالة على أحسن وجه . . وينطلق أتباعه بالدعوة . . إلى مختلف أنحاء الدنيا . .

وها هم المسلمون وقد دخلوا مصر . . بقيادة عمرو . . ولم تمض على رسالة النبى للمقوقس سوى عشر سنوات .

* * *



﴿ كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴿٢٨﴾ ﴾ [الدخان : ٢٥-٢٨]



انتشار الإسلام

هكذا أصبحت مصر وسوريا وفلسطين والعراق تحت السيطرة الكاملة للحكم الإسلامى . . وقد كان أمل عمر بن الخطاب -كما قلنا- أن تقف الفتوحات عند هذا الحد . . حتى ينعم الناس فى ظل نور الإسلام بقيم الإسلام . . وكان رغم انشغال عمر بن الخطاب فى الفتوحات . . إلا أنه ظل مشغولاً أكثر بأمور الرعية . . وأن يشعر الجميع بالأمن والأمان . . وأن يشعر الجميع بنعمة الإسلام . . فهو قد أقام أول ديوان فى الإسلام . . فوضع فيه أموال المسلمين . . وأعطى للناس الأعطيات فعاشوا فى بحبوحة من العيش . . وإن كان عمر قد أخذ نفسه بالتقشف والحياة الزاهدة جداً . . بصورة لا يمكن أن تخطر على بال . . رجل يحكم إمبراطورية فارس وكسرى . . ويعيش فى حياة الكفاف . . إنه ضرب أعظم الأمثلة لما يمكن أن يكون عليه الحكم . . فترى الرعية . . كما يرى القادة . . وحكام الولايات فيه المثل الأعلى . .

كانت أنحاء الإمبراطورية تسير بدقة ونظام فى غاية الروعة والجمال . . ولكن الخطر الرومانى رغم هزائم الرومان ما زال

ماثلاً . . وإن كان خطراً ضئيلاً فقد كسرت شوكة الرومان . . وفر هرقل . . ودبت الخلافات داخل عاصمة روما . . فقد تزوج الإمبراطور من ابنة أخته مارتينا وسخط الناس عليه لهذا الزواج الخاطئ . . رغم أن له أولاداً من زوجته (يودكيا) أكبرهم قسطنطين . . الذى سمى نفسه أو أطلق عليه أوغسطس . . وكان هرقل قد بلغ به المرض والشيخوخة ما جعله ألعوبة فى يد زوجته (مارتينا) . . والتى كان أملها أن يتولى ابنها هيراقلبوناس ولاية العهد مع أغسطس (١٣سنة) . . ومات هرقل . . وجيوش عمرو بن العاص تدك حصون الروم فى مصر . . ولعبت المؤامرات دورها فى بلاد الروم . . فمات أوغسطس بعد حكم قصير دام أقل من ثلاثة شهور ومن هنا تمكنت مارتينا من إعلان ولدها (هيراقلبوناس) إمبراطوراً على روماً . . وكان عمره خمسة عشر عاماً . .

ولم يكن الشعب الرومانى راضياً عن هذه الأحداث فى نظام الحكم وكان يرى فى مارتينا خاطئة . . ولا يجب أن يكون ابنها امبراطوراً على روما بينما لقسطنطين أو أغسطس ولدان . . أكبرهما كونستانس (١٢) سنة . . ومن هنا فقد زحف القائد الرومانى (فالنتين) من الأناضول لينصب كونستانس فى ولاية العهد مع ابن مارتينا . . فالصوة فى بلاد الرومان قد أصبحت قاتمة . . والحكم فيها ضعيف . . والخلافات على أشدها فى نفس الوقت الذى يحقق فيه

العرب انتصاراتهم المذهلة . . ويدعمون هذه الانتصارات بالعدل الذى يفرد ذراعيه فى البلاد المفتوحة . .

وكان الوضع فى بلاد فارس لا يقل سوءً عن الوضع فى بلاد الروم . . (فيزدجرد) قد فر هارباً إلى وديان إيران . . ولكن الفرس ما زال الأمل يراودهم فى إعادة تنظيم صفوفهم . . وتوجيه ضربة قاسية للحكم الإسلامى على أمل استعادة نفوذهم أو بعض نفودهم . . ولكنهم كانوا يسيرون ضد التيار . . ضد التاريخ . . فالزمن ليس فى صالحهم . . إنهم يسبحون ضد التيار فى زمن تخلى عنهم وعن معتقداتهم . . ودورهم التاريخى فى ظل معتقدات قد انتهى . . وآن الأوان أن ينتهى دورهم فى الحياة عند هذا الحد . . إلى أن يعتنقوا مبادئ الدين الإسلامى الحنيف . . ويصبح لهم دور فى الحياة من خلال مبادئ الإسلام العظيمة . . ومن هنا كانت هزيمتهم المروعة فى (نهاوند) . . هزمتهم قوات المسلمين بقيادة الصحابى الجليل النعمان بن مقرن . . الذى استشهد فى هذه المعركة الخالدة . . وكان ينضم إلى الجيش الإسلامى بعض أعلام المسلمين من أمثال عبداللّه بن عمر . . وطليحة الأسدى . . الذى كان قد ادعى النبوة . . وعاد إلى الإسلام . . وأخذ يكفر عما اقترفت يداه . . بأن أبلى بلاء حسناً فى الجهاد فى ميادين القتال . . وكان بينهم أيضاً أبو موسى الأشعرى . . الذى كان عامل عمر بن الخطاب على

البصرة.. وجبير بن عبدالله شيخ بنى جيلة .. كان الفرس يتحصنون فى موقع قوى .. وقد دقوا المسامير من حول موقعهم حتى لا تستطيع خيول المسلمين التقدم فوقها..

ووضعت الخطة الإسلامية بمقتضياتها يتقدم بعض المسلمين لقتال الفرس ثم يولون الأدبار .. ويتظاهرون بالهزيمة حتى يخرج لهم الفرس وقد أغراهم النصر .. وقد كانت هذه الفكرة فكرة طليحة.. ونجحت الخطة .. وما كاد الفرس يهاجمون العرب.. حتى فر العرب مذعورين.. وتبعهم الفرس .. ولكن سرعان ما ظهرت قوات المسلمين الرئيسية حيث دارت معركة رهيبة .. انتصر فيها المسلمون انتصاراً ساحقاً .. واستشهد فى هذه المعركة النعمان بن مقرن .. وتولى الراية بعده حذيفة بن اليمان .. كما أمر بذلك أمير المؤمنين عمر بن الخطاب .. وتم النصر النهائى .. وغنم العرب غنائم عظيمة منها صندوقان من الذهب .. وأرسلت هذه الغنائم إلى عمر بن الخطاب ليضعها فى بيت مال المسلمين..

وجاءت الأنباء إلى عمر بقتل النعمان .. فحزن .. وأخذ يردد قوله تعالى:

﴿ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴾ [البقرة: ١٥٦]

وبكى عمر بن الخطاب ..

وبعدها سـقطت مدينة همـذان . . وأمر عـمر أن يتولى نـعيم بن مقرن بعد أخيه النعمان قيادة جيش نهاوند . .

ومن هنا فقـد أجبرت الظروف عـمر بن الخطاب أن يدخل أرض فارس لغزوها بعـد أن تجدد خطر الفرس . . فتعقب نعـيم بن مقرن فلول الفرس داخل أرض الفرس . . وتوجـه أبو موسى الأشعرى إلى الأهواز لمواصلة الحرب ضد الفرس . . والتقى جيش نعيم فى جنوب الرحى بأحـد قادة الفـرس وهو (اسفنديار) . . وهو شـقيق القـائد الشهير رستم الذى هزم وقتل فـى القادسية . . وفى هذه المعركة هزم (اسفنديار) وأسر وانضم إلى العرب . . وانتشر قادة العرب يخضعون إقليم فارس إلى الإسـلام . . وهكذا استطاعت القوة الإسلامـية أن تثبت أقدام الإسلام فى هذه المنطقة الشاسعة . .

فإذا تركنا فارس . . وتغلغل الإسلام بها تغلغلاً سريعاً . . وعدنا إلى مصر بعد أن سقطت الإسكندرية فى يد عمرو بن العاص . . لم يكن غـريباً أن يتطـلع عمـرو بن العاص إلى الـتغلغل فى برقـة . . وضمها إلى نور الإسـلام . . وتقدم بالفعل ونجح فى إحكام السيطرة عليها . . بعد هزيمة الرومـان بها . . ووافق أهلها على دفع الجزية . . وقـد رحب أهل برقة وطرابلس بـالفتح الإسـلامى . . وقد حـاول عمرو بن العاص إخـضاع بلاد النوبة والسودان للحكم الإسلامى . .

بقـيادة عـقبـة بن نافع الذى سيـكون له دور كبـير فى الفـتوحـات الإسلامية فـيما بعد فى الشمـال الأفريقى . . ولكن هذه المحاولة لم تنجح . .

وهكذا نرى أمامنا خريطة ضخمة للفتـوحات الإسلامية فى عهد الخليفة العظيم عمر بن الخطاب . .

ولم نعرف فى التاريخ كله إنساناً انشغل بهذه الفتوحات الضخمة دون أن ينسى للحظة واحدة إقرار العدل بين الناس كـما فعل عمر بن الخطاب . . وهو لا يعمل إلا بما يرضى اللَّه ويرضى ضميره . .

إذا انتصر المسلمون فإن النصر من عند اللَّه . . وليس من عند أحد من البشر . . والكل أمام مبادئ الإسلام متساوون . . عزل خالد بن الوليد فى أوج انتصاراته . . ولم يكن هذا العـزل حقداً أو حسداً . . فهو على قمة السلطة . . ولكن حتى لا يفتن به أحد . . كذلك عزل سعد بن أبى وقاص . . قاهر الفرس وفاتح العراق . . دون أن يطعن فى نزاهته . . وحاسب أمـراءه محاسبة مـريرة . . إذا ظهر منهم أى ظلم بالرعية . . ولم يكـن يصدر أحكامه بسذاجة عـفوية ولكن بعد أن يتدبر الأمر ملياً . . ويقلبه من جميع الوجوه . . وقد أثبتت الأيام فراسة عمر السياسيـة وقدراته ومواهبه فى إدارة إمبراطورية تمتد على مساحة شاسعة من الأرض فى قارتى أسـيا وأفريقيا . . وكان حريصاً

على أن يعرف كل مـا يدور فى أنحاء هذه الإمبـراطورية من أمور . . وخاصة مواليه وعماله حـرصاً على العدل الشديد بين الناس . . كما كان يرسل القضاة إلى هذه الأقاليم ليحكموا بين الناس بالعدل، وألا يكون لأحد عليهم سلطان . . ومن رسائله إلى ولاته :

«افتح بابك للرعية . . وباشر أمورهم بنفسك . . فإنما أنت رجل منهم غير أن اللّـه جعلك أثقلهم حملاً . . واعتـبر منزلتك عند اللّه بمنزلتك عند الناس» .

وكان يرى أن اختـيار الولاة مسئولية كـبرى . . وأن يكون أساس الاختيـار هو القدرة على تصريف أمـور الناس . . وليس لأى سبب آخر حـتى أنه روى عن عبـداللّه بن عمـر قوله : سـمعت عـمر بن الخطاب يقـول : من استـعمل رجـلاً لمودة أو قرابة لا يسـتعـمله إلا لذلك . . فقد خان اللّه ورسوله والمؤمنين .

وهو بجانب ذلك . . ولحـرصه الشديد على العدل . . فـقد ترك الأرض فى الأمصار التى تم فتحها لأصحابها . . . وأخذ هو خمس الغنائم ليضـعها فى بيت مـال المسلمين . . والباقى على الجنود كـما كـان فى عهـد رسول اللّه . . وهو بإنـشائه بيت مـال المسلمين . . والإنفاق منه على أمور المسلمين وضع أسـاس الدولة المنظمة . . كما أنشأ دواوين أخرى للأوقاف والمحاسبة . . وولى عليها من أصحاب

البلاد من يجيدون العمل بها . . وعمل نسبة إحصاء للمسلمين . . ووضع كل منهم وظروفه . . ليأخذ كل واحد منهم حقه كما كفله الإسلام . . لأن الإسلام يحارب الجوع والعرى والمرض . . والإسلام كفل للفقراء حقوقاً على الأغنياء . . متمثلاً فى الزكاة والصدقات . . وعندما أصبح للإسلام إمبراطورية شاسعة الأركان . . تدر دخلاً كبيراً متمثلاً فى الجزية والضرائب والخراج . . فقد آن للناس أن ينعموا بما كفله الإسلام من حقوق . . وعليهم فى نفس الوقت أن يؤدوا ما عليهم من واجبات . . لقد قسم الناس إلى فئات . . كل حسب ما قدمه للإسلام من بلاء . . وجعل فى مقدمتهم آل بيت رسول اللّه . . والذين اشتركوا فى معركة بدر . . والذين اشتركوا فى صلح الحديبية . . والذين جاهدوا فى حروب الردة . . ثم الذين اشتركوا فى الفتوحات الإسلامية الكبرى فى العراق وسوريا وفلسطين ومصر وغيرها من الفتوحات الإسلامية . .

وبجانب بيت المال فقد أنشأ عمر ديوان الخراج . . وكان من حصيلة الأموال التى يدفعها القادرون من أهل الذمة . . ولم تكن الجزية عقاباً ولكن لأن المسلمين يحمون بها أهل الأمصار . . فلم يكونوا مكلفين بالتجنيد . . وأن عمر بن الخطاب كان يعطى أهل الذمة المحتاجين من بيت المال أيضاً . .

وكان منتهى آمال ابن الخطاب أن يحل مشكلة الفقر نهائياً . . حتى لا يكون أحد محتاجاً تحت راية الإسلام . . وأن يؤسس نظاماً اقتصادياً مستمداً من روح الإسلام يقضى على هذه المشكلة . . فهو القائل :

– لو استقبلت من أمرى ما استدبرت لأخذت فضول أموال الأغنياء فقسمتها على الفقراء .

* * *

ولا نريد أن نترك الحديث عن الفتوحات الإسلامية الضخمة فى عهده وقد مررنا بها مروراً سريعاً . . لأن الحديث عن هذه الحروب . . وعن تفاصيلها . . وعن البطولات الرائعة التى حققها المسلمون فى صدر الإسلام تتسع لمجلدات عديدة . . ولكن مررنا بها مروراً سريعاً لأننا نريد أن نعطى صورة لعصر من أزهى عصور الإسلام . . ولا يمكن الحديث عن عمر دون إلقاء الضوء على خريطة العالم فى ذلك الزمان لتكون الصورة لهذا العصر واضحة . .

والغريب أن هناك كثير من الافتراءات التى افتراها المؤرخون الغربيون حول هذه الفتوحات . . وهذه الافتراءات ارتكبها الغربيون إما حقداً . . أو حسداً . . أوتضليلاً . . فما انصفوا الحقيقة ولا اقتربوا منها . .

البعض منهم قال إن الفتوحات الإسلامية استهوت الأعراب لأنها عوضتهم عن النهب والسلب الذين اتصفوا به فى الجاهلية . . وهذا رأى سخيف . . لأنهم ذهبوا للجهاد فى سبيل اللَّه . . وهم يعلمون أن عدوهم أقوى منهم عشرات المرات . . ولولا الدافع الدينى القوى ما حققوا هذه الانتصارات المذهلة على أعداد أقوى منهم . . وأعظم منهم عتاداً . . كما أنهم ذهبوا لميدان القتال وهم موقنون بالموت . . ولولا استهانتهم بالحياة ما حققوا هذه الانتصارات . . وإذا كانوا قد توجهوا لميادين القتال وهم موقنون بالموت إذن فلم يكونوا طلاب دنيا . . لأنهم غير حريصين عليها . .

وهناك من المؤرخين من قال أن العرب قد واجهوا الفرس والرومان . . وقد انهك كل منهما فى الحروب الطويلة بينهما . . وهو قول أيضاً فيه الكثير من المبالغة . . فرغم أن الحروب الطويلة بين الفرس والرومان قد أثقلت كاهل كلتا الدولتين . . إلا أن الواقع يقول أن كلاً من الدولتين كانت أقوى بكثير عسكرياً من القوى العربية . . بدليل ما حشدته كلتا الدولتين من جنود وعتاد كان أضعاف الجيوش الإسلامية التى كانت تجابهها . .

لقد كان المسلمون يحاربون . . وفى أعماقهم أيمان جارف بقوله تعالى :

﴿ قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ ﴿١٣﴾ ﴾ [آل عمران: ١٣]

لقد انتصـروا فى معركة بدر . . وكانت جـيوش المسلمين قلة . . وجيوش المشركين ثلاثة أضعـافهم . . ومع ذلك انتصروا لأن النصر من عند اللَّه وانتصارات المسلمين الذين حقـقوها لإيمانهم العميق بأن النصـــر من عند اللَّه . . فنرى آيـات من سـورة الفـتـح توضح هذه الحقيقة: ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾ لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢﴾ وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴿٣﴾ هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٤﴾ لِّيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٥﴾ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿٦﴾ ﴾ [الفتح: ١-٦]

بهذه العقيـدة تقدموا وانتصروا . . لا الدنيا يصـيبونها . . ولكن لنشر نور الإسلام . . لا لحرص على الدنيـا فالموت كان أقرب إليهم من الحـيـاة . . انتـصـروا لأنهم آمنوا بقـيم نـبيـلة . . ودين عظيم

أخرجهم من الظلمات إلى النور . . وعندما كانوا يحققون انتصارات كانوا يصلون صلاة الشكر للَّه . .

أما أبعد شئ عن الحقيقـة فهو محاولة البعض من هؤلاء المؤرخين أن يصوروا أن الإسلام انتصر بحد السـيف . . وهذه أكذوبة سخيفة لأن هذا يتنافى مع مبادئ الإسلام . . فهم لم يكرهوا أحداً على ترك دينه . .

﴿ لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ﴾ [البقرة : ٢٥٦]

والإسلام لم يعتدى على أحد . .

﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (١٩٠) وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلا تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ (١٩١) ﴾ [البقرة : ١٩٠-١٩١]

والدعوة إلى الإسلام لا تعنى إرغام أحد على اعتناقه .

وأقرأ معى هذه الآيات :

﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (١٢٥) ﴾ [النحل : ١٢٥]

ونرى القـرآن الكريم فى سورة العنكبـوت يرسم صورة رائعـة لما

ينبغى أن تكون عليه خلق المسلم فى نقاشه للأخرين . . وفى محاولة إقناع الأخرين بالحق:

﴿ وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (٤٦) ﴾ [العنكبوت : ٤٦]

و . . ما أكثر السور القرآنية التى تدعو إلى الإسلام . . وإلى التسامح وما كانت الحروب التى كانت فى صدر الإسلام إلا دفعاً لعدوان الفرس والروم . . فالروم كانت تتحين الفرص وكذلك الفرس لمهاجمة الدين الجديد الذى وحد الجزيرة العربية كلها . . وجعلها على قلب رجل واحد . . فأصبحت من وجهة نظر الفرس والرومان خطراً يجب أن يستأصل من جذروه . . بل إن هرقل هدد المسلمين عندما أرسل له الرسول رسالته التى يدعوه فيها إلى الإسلام . . ولم يكن يدرى (هرقل) بكل صلفه وغروره وجبروته . . وهو يقود جيوش بلاده المنتصرة على الفرس . . أنه سوف تنتهى على يديه الإمبراطورية الرومانية الشامخة بأتباع هذا النبى العربى اليتيم الذى غير معالم الحياة فى العالم كله . .

وكان لابد للعرب أن يشنوا هجوماً على الأعداء أيضاً كنوع من الحرب الوقائية بلغة هذه الأيام . .

من ناحيـة أخرى . . فـإن نور اللّه . . ورسـالتـه لا بد أن تعم المشارق والمغارب وأن يعلم بها الناس . . كما بشر بذلك محمد عليه الصـلاة والسلام لأنه آخـر رسل السـماء . . ولأن رسـالته ليـست محلية . . ولكنهـا رسالة جامعة لكل البـشر . . وهذا لا يعنى إكراه الناس على اعتناقـها . . ولكن لا بد أن يعرفوا مـبادئ هذا الدين . . ثم بعد ذلك لهم الحرية . . أن يعتنقوه أم يرفضوا الإيمان به . .

﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا إِنْ عَلَيْكَ إِلاَّ الْبَلاغُ﴾[الشورى : ٤٨]

لقد ظل الرسول عليه الصلاة والسلام ثلاثة عشر عاماً فى مكة . . يدعو إلى الإسـلام بالحسنى . . ولم تقـابل دعوته إلا بالأذى . . آذاه قومـه . . وفرضوا عليـه الحصار . . واضطروا بعض أصـحابه إلى الهجـرة إلى الحبشـة، ثم أمره اللّه بالهجـرة إلى المدينة . . ومن هنا فرض الجهـاد فى سبيل اللّه . . حتى يرد المسلمون كـيد أعدائهم إلى نحورهم . . ويصبحون فى عزة . . فالإسلام يأبى الهوان . .

﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (١٩٠) ﴾ [البقرة : ١٩٠]

كما أمر الإسـلام بالجهاد . . للدفاع عن كيـان الإسلام نفسه . . ومن هنا فقد حبب اللّه الجهاد إلى القلوب . .

﴿ ... هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (١٠) تُؤْمِنُونَ

بالله ورسوله وتُجاهدُونَ في سَبيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ ﴾ [الصف : ١٠-١٣]

فلم يكن انتشار الإسلام إذن بحد السيف . . لأن هذا ما يأباه الإسلام تماماً . . أو على حد تعبير الإمام ابن تيمية فى (رسالة القتال) وهو يفسر الآية الكريمة ﴿ لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ﴾ [البقرة : ٢٥٦]

أنه نص محكم وجمهور السلف على ذلك . . وعلى أننا لا نكره أحداً على الإسلام وإنما نقاتل من بدأنا بالحرب فإن أسلم عصم دمه وماله وإن لم يكن من أهل القتال لا نقتله ولا نكره أحد على الإسلام . .

إنه من الثابت المقرر أن النبى ﷺ قد أسر من المشركين فمنهم من فداه ومنهم من أطلق سراحه ولم يكره أحد على الإسلام ، ولو كان القتال لأجل الكفر ما كان لهؤلاء إلا السيف . . والقرآن خيّر المسلمين حين يثخنون فى الأعداء بين المن على الأسرى أو الفداء . .

وهذه الحقيقة اعترف بها بعض المنصفين . . فترى جيبون يقول :

- إن السلام الذى نشر لواءه المسلمين بين المسلمين والمسيحيين أكثر من أربعة قرون كان مؤسساً على تسامح الإسلام وتعاليمه نحو الخير والسلام .

وقد سبق أن رأينا العهد الذى قطعه عمر بن الخطاب على نفسه عندما صالح أهل بيت المقدس . . وتعهد بعدم التعرض لكنائسهم ومعتقداتهم فأين هو السيف الذى انتشر به الإسلام؟؟

بل إن الذى يدرس التاريخ يرى كيف أن هناك من الغزاة الذين اكتسحوا قوى العالم . . ما لبثوا هم أنفسهم رغم قوتهم وجبروتهم أن مالوا إلى الإسلام كالتتار مثلاً . .

ولهذا . . نرى أن (فريمان) يقول:

- علينا لكى ندرك طبيعة ما أحدثه محمد من تبدلات . . وطبيعة نتائجها . . أن نفهم تفهماً كاملاً حقيقة الأوضاع التى وجدها قائمة عند ظهوره فى بلاده العربية . . وفى إمبراطورية الرومان والفرس المجاورتين لبلاده . . وهما الإمبراطوريتان اللتان احتلت قوات خلفائه المنتصرة ثانيتهما احتلالاً كاملاً . . واحتلت أجزاء كبيرة من أولاهما . .

الإسلام إذن انتشر بقوة مبادئه . . بمثله العليا . . بقيمه التى أخرجت الناس من الظلمات إلى النور . . فلم يحدث فى تاريخ البشرية كلها أن انتشر دين بهذه السرعة التى انتشر بها الإسلام . . لا لشئ إلا لأنه يحمل مقومات الانتشار . . وهل يمكن أن نجد مثل هذا العدل الذى شهده الإنسان فى عصر عمر . . لا فرق عنده بين ملك

ومملوك وصعلوك . . أو بين حاكم ومـحكوم . . أو غنى أو فقير . . بل آل على نفـسه أن يعـيش الجميع فـى كنف الدولة الإسلامـية لا يخاف أحد غده . . ولا يخشى إنســان ألا يجد قوت يومه . . أليس عمر القائل:

- لئن عشت لأعطين الراعى فى جبل صنعاء نصيبه من المال . .

* * *



أيها الناس إني قد وليت عليكم
ولولا رجاء أن أكون خيركم لكم
وأقواكم عليكم وأشدكم اضطلاعا
بأموركم ما توليت ذلك منكم
ولكفى عمر انتظار الحساب.

عمر بن الخطاب



صور من حياة عمر

فى الصفحـات الماضية رأينا صوراً مختلفـة عن عمر بن الخطاب وعصره . .

توقفنا عند شبـابه . . وعند إسلامه . . وعند مواقفـه المختلفة . . تلك المواقف التى تدل على مـعدن عمر . . كـما رأينا بعض المواقف التى نزل القرآن مـؤيداً فيهـا رأيه . . ورأيناه عندما تولى الخـلافة . . وكيف كـانت مواقفه من الفـتوحات الإسـلامية الضخـمة . . التى بلغت فى عـهده منتـهاها . . ولم يكن الهـدف من هذه الفتـوحات مجرد الفـتح . . وتوسيع رقعة الأرض . . وتكويـن إمبراطورية . . ولكن كان الهدف منها رد اعتداء المعتدين الذين كانوا يتربصون بالقوة الإسلامية الصاعدة . . ويتحـينون الفرص . . للانقضاض عليها . . كما كـانت أيضاً وفى نفس الوقت تحقيقـاً لعالمية الإسلام كمـا أخبر بذلك النبى عليه الصلاة والسلام . .

وإذا كان الهدف من هذه الدراسة ليس مـجرد إلقاء الأضواء على سيـرة عمر . . بقدر مـا هى محاولة بجـانب دراسة سيرة عـمر بن الخطاب وإعطاء صورة للعـصر . . هى إعطاء صورة لما أحدثـه عمر

فى مجتمع شبه الجزيرة العربية . . ثم فى الإمبراطورية الإسلامية . . وأيضاً على مختلف الأجيال التى جاءت بعد ذلك . . ورأت فى صورة عمر . . صورة الحاكم العادل . . والإنسان الزاهد . . والعالم الورع . . والأديب الذواقة . . والسياسى الماهر . . صور متعددة نراها فى شخصية هذا الإنسان العظيم بكل مقاييس العظمة . .

إن عمر بن الخطاب . . الذى يخشى اللَّه فى الرعية . . ولا شئ يثنيه عن عزمه فى تحقيق حدود اللَّه . . أعطى أعطيات للناس كل حسب أسبقيته فى الإسلام . . ولم يكن الهدف من ذلك هو تحويل الناس إلى طبقات ولكن لأن ما كان يأتى من بيت مال المسلمين من الجزية أو من الخراج . . وهو خمس الغنائم لتتسع للناس جميعاً على قدم المساواة . . فقد كان عمر عادلاً إلى أقصى حدود العدل . . وهل يمكن أن نرى مثل هذه الصور الرائعة التى تحدثنا عن عدل عمر ابن الخطاب . .

وهل يمكن أن نرى إنساناً يحاسب نفسه هذا الحساب العسير كما كان يفعل عمر بن الخطاب . .

إن السلطة عنده ليست إرهاباً . . وليست تسلطاً على الناس . .

وحقوق الناس ليست هبة منه للشعب . . ولكن واجب فرضه شرع اللَّه . . وعليه هو تنفيذ الشرع . .

ونرى العظمة . . عظمة الشخصية الإنسانية فى أرفع مستوياتها عند عمر . . عندما يكون هو المتهم وهو القاضى فى نفس الوقت . .

يروى لنا التاريخ أن رجلاً جاء يشكو إلى عمر بشكوى . . وطلب منه أن يحقق فيها فضربه عمر بالدرة وقال له :

- تدعون أمير المؤمنين وهو معرض لكم . . مقبل عليكم . . حتى إذا انشغل بأمر من أمور المسلمون أتيتموه : أعدنى . . أعدنى . .

وانصرف الرجل حزيناً . . كسير البال . . لقد جاء إلى عمر يستنصره على من ظلمه . . ولكن خانه التوفيق فجاء فى وقت كان عمر مشغولاً فيه بأمور المسلمين فلم ينصفه . . وتذكر الرجل . . وتذكر أنه لم ينصفه . . بل وأنه تركه كسير الخاطر . . وطلب عمر الرجل . . وجاءوا به إليه . . وطلب عمر من الرجل أن يقتص منه . . ولكن الرجل قال :

- لا واللَّه . . ولكنى أدعها للَّه .

وعاد عمر إلى بيته بعد أن صلى ركعتين للَّه . . تذكر قصة هذا الرجل الذى استنجد به . . فأخذ يحاسب نفسه حساباً عسيراً . . وهو يقول لنفسه يؤنبها أشد التأنيب :

- يا ابن الخطاب . . كنت وضيعاً فرفعك اللَّه . . وكنت ضالا فهداك اللَّه . . وكنت ذليلاً فأعزك اللَّه . . ثم حملك على رقاب الناس . . فجاءك رجل يستنجد بك فضربته . . فماذا تقول لربك غداً إذا اتيته؟ .

ونمضى مع هذا التلميذ العظيم . . من تلاميذ مدرسة النبوة . . لنرى إنساناً يمكن أن يعيش على أعلى مستويات المعيشة . . وقد آلت إليه ممتلكات كسرى وقيصر . . ومع ذلك فهو يعيش فى بيت متواضع للغاية . . ويلبس ملابس خشنة للغاية . . ويأخذ من بيت المال الكفاف . . ويقوم بنفسه ليطوف بالمدينة ليلاً ليعرف أحوال الرعية . . ويتطلع إلى معرفة شئون الناس وهذا ما لم يفعله حاكم فى أى عصر من العصور . . إنه يستمع مثلاً ذات ليلة . . إلى سيدة تنشد شعراً تبث من خلاله أحزانها ويحاول عمر أن يعرف الحقيقة . . إنه يستمع إليها وهى تقول:

تطاول هذا الليل وازور جانبه

وليس إلى جنبى خليل ألاعبه

فو اللَّه لولا اللَّه لارب غيره

لزلزل من هذا السرير جوانبه

مخافة ربى والحياء يصدنى

وأكرم بعلى أن تنال ركائبه

ويعرف عمر أن زوجها فى الجيش الزاحف فى المعارك الإسلامية الكبرى فيسأل ابنته حفصة :

« كم تصبر المرأة عن زوجها ؟ »

تصبر شهراً أو شهرين أو ثلاثة . . وينفذ صبرها بعد الشهر الرابع ، ويأمر عمر أن يعود كل جندى متزوج لأهله بعد أربعة أشهر ؟ ؟

إنسان حريص كل الحرص أن يعيش كل إنسان تحت حكمه وهو يشعر بالأمن والعدل والرخاء . . وكما أنه كان حريصاً على إقامة الحدود . . يستوى فى ذلك القوى والضعيف . . والغنى والفقير . . إلا أنه حريص كل الحرص . . أن يستر المؤمن . . وأن يظل طوال حياته مستوراً . . لا يتمنى لأحد من المسلمين أن يقف هذا الموقف الحرج وأن تقام عليه الحدود . . ولا يأخذ الناس بالشبهات . . بل إن قلبه يقطر حزناً لو أحس أنه ظلم إنساناً بدون قصد . . لقد خرج فرأى امرأة تحاول إمساك ابنها عن البكاء . . ولكن الطفل كان لا يكف عن البكاء . . فيسألها عن السبب فى بكاء ابنها . . فقالت إنها تحمله على الفطام لأن عمر لا يفرض إلا للفطيم . . ويخرج عمر وهى لا تعرفه من عندها والحزن يعتصر فؤاده . . ويراجع نفسه . .

- يا بؤساً لعمر . . كم قتل من أولاد المسلمين ؟ .

أمر من ينادى فى المدينة . . بألا يفطم أحد أولاده لأنـه سيفرض مالاً لكل مولود فى الإسلام . .

وعمر الحاكم لا يفرق فى العدل بين الناس . .

فالناس جميعاً سواسية أمام القوانين . .

ومن منا لا يستوقفه هذا المشهد الرائع . . عندما يأتى رجل مصرى إليه . . يشكو إليه أنه كان يسابق ابن عمرو بن العاص حاكم مصر . . فلما سبقه ضربه ابن العاص بالسوط وهو يقول له: أنا ابن الأكرمين فكيف تسبقنى؟؟

ويأمر عمر بأن يحضر عمرو وابنه إلى المدينة . . يأتى عمرو بن العاص وابنه ويعطى عمر السوط للمصرى . . ليقتص لنفسه . . ويقول له:

- اضرب ابن الأكرمين.

وينظر إلى عمرو بن العاص ويقول له: متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً.

ونرى عظمة عمر أكثر عندما يكون هو نفسه طرفاً فى قضية . . هنا نرى جلال العدل فى أرق الصور وأجملها . .

إنه لا يتسلط على الناس بنفوذه . . ولا يأخذهم بسلطان الحكم . . ولكنه يخضع لما يراه الناس صواباً . .

ذات يوم أراد عمـر أن يوسع مسجد الرسـول . . ووجد أن الحل هو أن يأخذ دار العـباس لأنها بجانب المسجد . . ويلتقى بالعـباس ويدور بينهم حواراً .

عمر يـقول للعباس: لقـد سمعت رسول اللّه قـبل موته يريد أن يزيد فى المسجـد وإن دارك قريبة من المسـجد فاعطنا إياها نزدها فـيه ونقطع لك أوسع منها . .

ورفض العبـاس . . وطلب من أمير المؤمنين الاحـتكام إلى أحد المسلمين . . ووقع الاختيـار على حذيفة بن اليمـان . . وذهب عمر والعباس إليه فى منزله . . أن عمر هنا خصم . . فلا يصح أن يكون الخصم والحكم فلابد أن يتوجه هو - وهو خليفة للمسلمين- إلى دار من سيحكم فى هذه القضية . . ويعـرضا الأمر على حذيفة . وكان حكم حـذيفة أنه ليس من حق أمـير المؤمنين أن يأخـذ بيت العـباس لضمه إلـى مسجد الرسول . . وكـان مسلكه لذلك . . أو حيـثيات الحكم بلغة الـعصر . . هى: سـمعت أن نبى اللّه داود عليـه السلام أراد أن يزيد فى بيت المقدس فـوجد بيتـاً قريباً من المسجـد . . وكان هذا البيت ليتيم . . فطلبه منه فأبى . . فأراد داود أن يأخذه قهراً . . فأوحى اللّه إليه:

« إن أنزه البيوت عن الظلم لهو بيتى» فرجع داود عن عزمه . .

هنا صمت عمر . . وأذعن للحكم . . وقرر عدم أخذ بيت العباس ولكن العباس تنازل عن بيته لبيت اللّه . . عندما وجد أن عمر العادل . . أذعن لحكم القاضى . .

بل إن عمر . . الذى يملأ الأرض مهابة وجلالاً . . والذى يخشاه أصلب الناس وأشجعهم لين الجانب . . وهو يستمع إلى نقد يوجه إليه . . وهناك صورة مشرقة لهذه الصفة العمرية . . وكيف أنه كان يستمع إلى النقد اللاذع الذى يصل إلى درجة السخرية . . ولكنه يصمت . . حتى إذا ما وجد أن هناك شبهة فى انحراف عن العدل . . بكى خشية للّه . . وأصبح فى وداعة الطفل . .

إنه يسير يوماً . . ومعه (الجارود العبدى) . . فتستوقفه امرأة فى الطريق . . ويقف عمر . . ويستمع إليها . .

- يا عمر : عهدى بك . . وأنت تسمى (عميرا) تصارع الفتيان فى سوق عكاظ . . فلم تذهب الأيام حتى سميت (عمر) ثم لم تذهب الأيام حتى سميت أمير المؤمنين فاتقى اللّه فى الرعية . . وأعلم أن من خاف الموت . . خشى الموت . .

ولم يستطع صاحبه أن يصمت أمام جرأة المرأة على أمير المؤمنين . . ولكن عمر العظيم نهر صاحبه عن التدخل وهو يقول له :
-دعها فإنك لا تعرفها . . هذه (خولة بنت حكيم) التى سمع

اللّه قـولها من فـوق سبع سمـاواته . . وهى تجادل الـرسول فى زوجها وتشتكى إلى اللّه . . فعمر واللّه أحرى أن يسمع كلامها .

إن هذه المرأة لو لم تعرف طبـاع عمر . . مـا تجرأت على أن تقف منه هذا الموقف . .

وعمر الذى يثوب دائمـاً إلى الحق . . ولا يتمسك برأيه مطلقاً . . لأنه يخـضع دائماً لـلحق . . نموذجاً رائعـاً للحكم العـادل الذى لا يجود الزمان بمثله . . إنه عملة نادرة فى كل العصور . .

وهل يمكن أن نرى أرفع من هذا الموقف . . يوم وقف عمـر يقول للناس :

- لا تزيدوا مهـور النساء عن أربعين أوقـية . . فمـن زيد ألقيت الزيادة فى بيت المال .

هنا تعتـرضه امرأة . . وهى موقـنة أن عمر جانبـه الصواب . . فمن أين يأتى بهـذا القرار . . وعلى أى أساس؟ ليس فى كـتاب اللّه وسنة نبيـه ما يبيح لعمـر أن يصدر مثل هذا القـرار . . فلم تتردد أن تواجه عمر وتقول له :

- ما ذاك لك؟

- ولم؟

- فتقول : إن اللَّه تعالى يقول: ﴿ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا فَلا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴾ [النساء : ٢٠]

ويمتلئ صدر عمر بالسعادة . . ويخضع للحق وهو يقول:

- أصابت امرأة . . وأخطأ عمر .

ويبلغ حرص عمر على استماع الرأى الآخر أقصى مداه . . ولا يضيق بنقد . . فقد اتخذ قراراً بعزل خالد بن الوليد . . وهو له رأى في خالد . . ولكن لم يذم خالدا . . ولا حاول أن ينال منه . . ولكنه عزله وهو موقن أنه قد اتخذ قراراً عادلاً حتى لا يفتن الناس به . . لأن النصر من عند اللَّه . . ومع ذلك فقد لامه البعض . . بل واجهه أبو عمر بن حفص بن المغيرة عندما حاول عمر أن يعطى للناس المبرر لعزل خالد:

- أنى أعتذر إليكم من عذل خالد . . فإنى أمرته أن يحبس هذا المال على حفنة المهاجرين . . فأعطى ذوى البأس . . وذوى الشرف . . وذوى اللسان .

رد أبو عمرو:

- واللَّه ما اعتذرت يا عمر . . وقد نزعت فتى ولاه رسول اللَّه وأغمدت سيفاً سله رسول اللَّه . . وضعت أمراً رفعه رسول اللَّه . . وقطعت رحماً . . وحسدت بنى العم . .

إن عمر العظيم . . ابتسم لأبى عمرو . . وعزا تهوره إلى قرابته من خالد:

- إنك قريب القرابة . . حديث السن . . تغضب فى ابن عمك .

ولم يحاسبه عمر . . عن تجاوزه حدوده باتهامه من أمير المؤمنين بالحسد! .

إنه القلب الكبير الذى يتسع لهفوات الناس . .

ما أروع عمر .

وما أرق قلبه . .

ونحن نرى هذه الصورة النادرة من صور الوفاء . . والحنان والحب . . عندما يترك جندب بن عمرو بن حممة الدوسى بلاده متجهاً مجاهداً فى سبيل اللّه . . وكان عنده بنت صغيرة تركها أمانة فى عنق عمر بن الخطاب حتى يأتى من الجهاد . . ويستشهد الرجل فى المعركة . . ويعامل عمر الابنة كابنته تماماً . . وذات يوم وهو على المنبر تذكر من تركها أبوها وديعة فى عنقه . . وقال وهو على المنبر:

- من له فى الجميلة الحسيبة بنت جندب بن عمرو . . وليعلم امرؤ من هو؟

وتقـدم عثـمـان . . وقدم لهـا المهر وزوجـهـا له . . واستـرح ضميره . .

ويروى ابن عباس تلك القصة :

- قدم على عـمر بن الخطاب حـاجاً فصنع له صـفوان بن أمـية طعاماً . . وجهزت المائدة وحملها أربعة ووضعت بين القوم . . فأخذ القوم يأكلون وقام الخدم . .

فقال عمر : أرى خدامكم لا يأكلون معكم أترغبون عنهم . .

فقال سـفيان بن عبـداللّه : لا واللّه يا أمير المؤمنين ولكننا نسـتأثر عليهم . . فغضب عـمر غضباً شديداً . . ثم قال : مـا لقوم يستأثرون على خدمـهم . . فعل اللّه بهم وفعل . . ثم قال للخـدام : أجلسوا فكلوا . . فقعد الخدم يأكلون . . ولم يأكل عمر . .

أى رحمة تلك التى تملأ قلب أمير المؤمنين . . فنراه يسير ليلاً فى طرقات المدينة . . لعل هناك من يحـتاج إلى شئ . . وهل يمكن أن نرى صوراً كـتلك الصور التى تحكى عن أميـر المؤمنين : عندما يرى امرأة يجيئـها المخاض . . فيسرع إلى زوجتـه أم كلثوم . . ويأخذها ومعها غذاء للأم والوليد الذى سـوف يأتى . . لتساعدها حتى تضع مولودها . .

. . و . . ما أكثر الصور . .

وما أكثر الحكايات التى تدل على زهد عمر وتعففه وطهره . . وعدم غروره بالدنيا . . كان يحلم أن يعيش حياة هانئة كخليفة للمسلمين دون أن يكون عليه ضيم . . ودون أن يخرج عن الحدود التى سنها اللَّه . . وآثر أن يعيش على الكفاف . . لأن ما عند اللَّه خير وأبقى . . وأن الدنيا أيام زائلة . . وهى مجرد جسر إلى الآخرة . . وأن الذين يستمتعون بالحياة الدنيا لا يعلمون أن ما عند اللَّه خير وأبقى . . ومن هنا كان قوله لمن طلب منه العناية بمأكله وملبسه . . مردداً قوله عز وجل:

﴿ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ﴾ [الأحقاف: ٢٠]

ومن هنا تتضح رؤيته للحياة . . ونظرته العميقة لها أثناء حكمه عندما كان يريد أن يضع حداً للهفة الناس على حب المال . . وحب الحياة . . فخطب يوماً يقول:

– ألا وإن قريشاً يريدون أن يجعلوا مال اللَّه دولة بينهم . . وابن الخطاب حى فلا . . وإنى قائم لهم بحرة . . فآخذ بحجزهم أن يتهافتوا فى النار.

كان قاسياً على نفسه أشد ما تكون القسوة . . إنه لم يجعل لنفسه سوى حلة للشتاء وأخرى للصيف . .

وتبلغ عفته منتهاها فى كل الأمور . . أو على حد تعبير طلحة بن عبدالله . . ما كان عمر بن الخطاب أولنا إسلاماً . . ولا أقدمنا هجرة . . ولكنه الآن أزهدنا فى الدنيا وأرغبنا فى الآخرة . .

لم يكن عمر رجل دنيا . .

ولكنه جعل الدنيا جسراً للآخرة . . فكانت أيامه أزهى عصور الإسلام عدلاً وأمناً وفتوحاً . . وأملاً فى غد مشرق . . ومستقبل سعيد . . لا أحد يخاف أحد . . لأن العدل ينشر أجنحته . . والمال للجميع . . والتكافل الاجتماعى حق مكفول لكل الناس . . فى مختلف الأمصار يستظلون بالعدل . . وجميع حكام المسلمين فى مختلف الأقطار تحت رقابة واعية من أمير المؤمنين . . فكان يحصى مال الوالى الذى عنده عندما يتولى الأمر . . حتى يمكن محاسبته بعد ذلك إذا ما ظهرت عليه علامات الثراء؟؟

هذه الصورة التى كان عليها عمر بن الخطاب . . أثارت الدهشة فى كبار الصحابة حتى نرى الإمام علىّ رضى الله عنه نفسه . . منبهراً بعدل عمر . . فقد رآه يوماً مسرعاً على بعيره سأله : أين يذهب؟

فقال : بعير شرد من أبل الصدقة فخرجت أطلبه . .

فقال علىّ : لقد أتعبت من جاء بعدك؟

قال عمر: يا أبا الحسن ، لا تلمنى ، فوالذى بعث محمداً بالهدى ودين الحق لو أن عناقاً ضلت بشاطئ الفرات لحوسبت عليها فى يوم القيامة . .

إنسان هذه صفاته . . ترتفع هاماته بين العظماء إلى قمة عالية . . وهذا ما جعله نور هداية للمسلمين عبر كل العصور . . يقتفون أثره . . ويرون فى سيرته نور هداية وطريق معبد نحو حياة حرة كريمة . . فيها كرامة الإنسان وحرية الإنسان . .

وأنه كحاكم للمؤمنين . . كان حريصاً كل الحرص على راحة الناس . . ومن هنا نجد أنفسنا أمام شخصية غاية فى الإبهار . . ونحن نراه بجانب كونه مسئولاً عن المسلمين . . نرى أنفسنا أمام عالم فقيه . . يعرف حدود الشرع ويعرف كيف يجتهد . . والذى يقرأ هذه الرسالة التى كتبها لأبى موسى الأشعرى . . يعرف أنه أمام وثيقة عظمى من الوثائق التى ترتفع إلى غاية يأملها الإنسان المثالى . . فى العدل . . وفهم الأمور . . وعمق النظرة الواعية إلى الحياة . . وكيف ينبغى أن يكون عليه القضاء:

- من عبد اللّه أمير المؤمنين إلى عبداللّه بن قيس . . سلام عليك . . أما بعد . .

فإن القضاء فريضة محكمة . . وسنة متبعة . . فافهم إذا أدلى

لك . . وانفذ إذا تبين لك . . فإنه لا ينفع حق لا نفاذ له . . آس بين الناس فى مجلسك ووجهك . . حتى لا يطمع شريف فى حيفك . . ولا ييأس ضعيف من عدلك . . البينة على من ادعى . . واليمين على من أنكر . . والصلح جائز بين المسلمين . . إلا صلحاً أحل حراماً أو حرم حلالاً . . ولا يمنعك قضاء قضيته بالأمس . . فراجعت نفسك فيه وهديت لرشدك أن ترجع إلى الحق . . فإن الحق قديم لا يبطله شئ . . ومحققة الحق خير لك من التمادى فى الباطل . . الفهم الفهم فيما يتلجلج فى صدرك فيما ليس فى كتاب ولا فى سنة . . واعرف الأشياء والأمثال ثم قس الأمور عن ذلك . . واعمد إلى أحبها إلى اللَّه . . وأشبهها بالحق . . واجعل لمن ادعى غائباً أو بينة . . أمداً ينتهى إليه . . فإن أحضر بينته أخذت له بحقه . . وإلا استحللت عليه القضاء فإن ذلك أنفى للشك . . وأجلى للعمى . . وأبلغ فى العذر . . والمسلمون عدول فى الشهادة بعضهم على بعض إلا مجلوداً فى حد أو مجرباً عليه شهادة زور . . . أو ظنينا فى ولاء أو قرابة . . فإن اللَّه قد تولى منكم السرائر ودرأ عنكم الشبهات . .

وإياك والقلق والضجر والتأذى بالناس والتنكر للخصوم فى مواطن الحق التى يوجب اللَّه بها الأجر ويحسن الذخر . . فإنه من يخلص فيما بينه وبين اللَّه تبارك وتعالى . . يكفه اللَّه ما بينه وبين

الناس . . ومن تزين للناس فيـما يعلم اللّه خلافـه منه شانه اللّه . . وهتك سترة . . وأبدى فعله . . فـما ظنك بثواب عند اللّه فى عاجل رزقه . . وخزائن رحمته والسلام .

إنها صورة رائعة لشـخصية عمر . . تلك الشخـصية التى أتعبت بالفعل من جاء بعدها على حد تعبير الإمام علىٍّ بن أبى طالب رضى اللّه عنه . . فـقد شـفت روح عـمر لخـوفه اللّه . . وعـدله وزهده وبلغت هذه الشـفافيـة حد الكرامـة . . فها هو يخطب خـطبة يوم الجمـعة ذات مرة . . وإذا بـه يقطع سياق خطبـته ويقـول «يا سارية الجبل» وتعجب الناس . . حتى أن علياً سـأله بعد الصلاة ماذا يقصد بكلامـه يا سارية الجـبل؟ فـرد عمـر : « وقع فى قلبى أن المشـركين يحاولون تطويق جـيش المسلمين الذى كان يقوده سـارية . . فناديته ليحتمى بالجبل قبل وصول المشركين» . .

وجاءت الأخبار بعد ذلك . . بأن المسلمين سمـعوا أثناء معركتهم صوت عـمر . . فـاحتـموا بالجـبل . . وحقق اللّه لهم النجـاة من العدو . .

ومن خلال ما قرأت من كلمـات عمر بن الخطاب . . ومن خطبه نرى أنفسنا أمـام أديب . . بليغ العبارة . . جـيد الأسلوب . . رائع المضمـون . . فهو أديب ملهم . . حـتى أن أسلوبه من أرق وأجمل

الأساليب . . فكأنه نافذ البصيرة إلى أعماق النفس البشرية . . ودارس لأحوالها فاهم لأسرارها . .

أما بلاغته فواضحة . . فأسلوبه السهل الممتنع وهو القائل فى كلماته الجامعة :

* أعقل الناس أعذرهم للناس . .

* لا يكن حبك كلفاً ولا بغضك تلفاً . .

* ليس خيركم من عمل للآخرة وترك الدنيا . . أو عمل للدنيا وترك الآخرة . . ولكن خيركم من أخذ من هذه ومن تلك . .

* لا تقولوا الرأى الذى تظنونه يوافق هواى . . وقولوا الرأى الذى ترونه يوافق الحق . .

* لا يقعد أحدكم عن طلب الرزق ويقول اللهم ارزقنى . . وقد علم أن السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة . .

وعمر الحريض على سمعة الناس وعلى شرفهم . . وعلى ستر عوراتهم . . ضاق ذرعاً بهجاء الحطيئة . . الشاعر الذى اشتهر بهجائه فاستدعاه يوماً . . وأوحى له بأنه سوف يقطع لسانه . . وخاف الحطيئة . . وتعهد لأمير المؤمنين ألا يهجو أحداً . . واشترى عمر سكوته بثلاثة آلاف درهم . . حتى لا يجرح أعراض المسلمين . .

هذه صورة عامة عن عمر بن الخطاب . .

بقى أن نعرف أنه تزوج فى الجاهلية بثلاثة نسوة هن جميلة بنت أبى أمية المخزومية . . وهى أخت أم سلمى أم المؤمنين . . وكانت جميلة . . وأم كلثوم . . وقيل أن اسمها مليكة بنت عمرو بن جردل الخزاعية . . وزينب بنت مظعون الجمحى (أم عبداللّه وحفصه وعبدالرحمن الأكبر) . .

وتزوج فى الإسلام أم كلثوم بنت علىٍّ وابنة فاطمة الزهراء . . وقد أنجب منها زيداً الأكبر ورقية . . وجميلة بنت ثابت . . وأم حكيم بنت الحارث . . وعاتكة بنت زيد . . وطبعاً كان على ذمته أربعة . . وكان عدد أولاده تسعة من الذكور وخمساً من البنات . .

ولا نجد ما نختتم به هذا الفصل سوى تلك الكلمة الجامعة التى قالها عنه معاوية بن أبى سفيان :

- أما أبو بكر فلم يرد الدنيا ولم ترده . . وأما عمر فأرادته الدنيا ولم يردها . . أما نحن فتمرغنا فيها ظهراً لبطن؟ . .

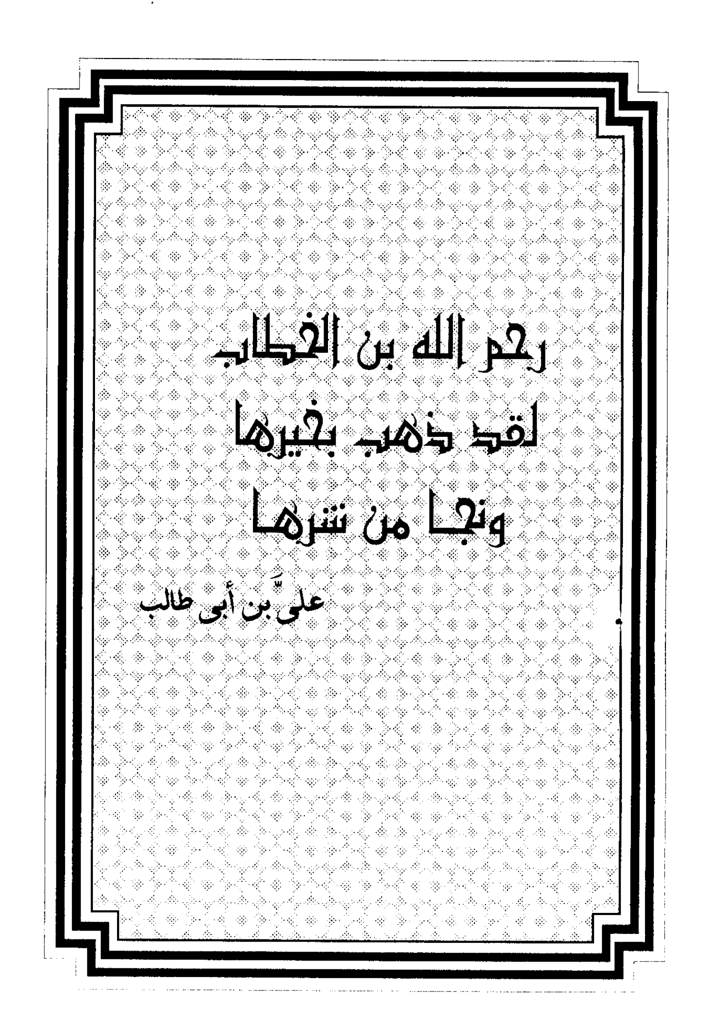
وقال عنه عمرو بن العاص :

- للّه در عمر بن حنتمة . . أى امرئ كان .

نعم . . أى امرئ كان هذا الخليفة الذى ملأ سمع الزمان والمكان فى كل العصور .

* * *




رحم الله بن الخطاب
لقد ذهب بخيرها
ونجا من شرها
عليٌّ بن أبي طالب

وفـــاة عمـــر

لقد ملأ عمر الحياة نوراً وعدلاً وأملاً . . وغدت الحياة فى عصره مليئة بالبهجة والسعادة . . فالعرب الذين كانوا لا يعرفون إلا رحلتى الشتاء والصـيف . . أصبحوا بفضل الإسلام رسل حـضارة يبشرون بأعظم القيم وأنبلها . . والذين كانوا يخشون الفرس والروم أصبحوا سادة على الفرس والروم . . ودانت لهم دولتاهما . . وامتد سلطان المسلمين على مـساحة شـاسعة من الأرض فـضمت مصـر وسوريا وفلسطين والعـراق . . وأرض فـارس نفـسهـا . . وتمتع المسلمـون بالرخـاء . . وتمتع أهل الذمة بـالأمن والأمان . . وأصـبح الجمـيع يعـيشـون بلا خـوف من ظلم يؤرق حيـاتهم . . أو بطش يجـعل حيـاتهم جـحيـماً لا يطاق . . وأصـبحت هناك دولة لهـا قوانينـها المستمدة من كتاب اللَّه وسنة رسوله . . وأصبحت لهذه الدولة مكانة عظيمة . . فى العالم كله . . وأصـبح اسم عمر بن الخطاب . . يرمز إلى كل ما هو جليل ونبيل وعادل وعظيم . . ولكن آن لهذه الشمس الباهرة الضياء أن تغيب وأن تترك الحياة . . بعد أن ملأتها بكل ما هو جدير بالحياة والخلود . .

لقد آن لهـذا الشخص البالغ النضج والعظمة أن يغـادر دنياه . . فهـذه سنة الحـياة . . ولقـد رحل عنها من قـبل أستـاذه العظيم . . محـمد عليه الصـلاة والسلام . . الذى لم تشـاهد الأرض مثله . . وتركها من قـبله صديق عمره أبو بكر الصـديق . . فالموت حق . . ومقدر ومقدور . .

لقد روى سعـيد بن المسيب : لما نفر عـمر من منى أثناء الحج . . أناخ بالأبطح ورفع يديه إلى السماء وقال:

اللهم كـبرت سنى . . وضـعفت قـوتى . . وانتشـرت رعيـتى فاقبضنى إليك غير مضيع ولا مفرط . .

ويروى البخارى أن عـمر قال: اللهم ارزقنى الشهـادة فى سبيلك واجعل موتى فى بلد رسولك . .

وروى الحاكم أن عمر خطب فقال:

- رأيت كأن ديكاً نقرنى نقرة أو نقرتين . . وإنى لأراه إلا حضور أجلى.

وبينما كان عمر يطوف بالسوق لقيه أبو لؤلؤة المجوسى . . وكان غلامـاً للمغيرة . . وكـان صانعاً ونجـاراً ماهراً . . وكان المغيـرة قد فرض عليه درهمين كل يوم . . وكان أبو لؤلؤة يستكثر ذلك . . لكن عمر لم يجـد فى هذا المبلغ إرهاقاً له وهو المشهور فى مـهنة التجارة والحدادة . . واستدعاه عمر بعد عدة أيام وقال له:

- ألم أخبر أنك تقول لو شئت صنعت رحى تطحن بالريح . .

والتفت الرجل إلى عمر عابساً وقال له :

- لأصنعن لك رحى حتى يتحدث بها الناس .

ومضى أبو لؤلؤة المجوسى وقال عمر : أوعدنى العبد .

وهناك بعض الروايات التاريخية التى تحكى قصة بطلها كعب الأحبار . . وهو يهودى ادعى الإسلام . . وإن صحت هذه الرواية فهى تعنى أنه كان هناك مؤامرة على قتل ابن الخطاب . . وأن السبب وراء مقتله ليس مجرد أن أبا لؤلؤة أحس أن عمر لم ينصفه . . ولكنها مؤامرة ترجع إلى انتصارات المسلمين على الفرس واليهود أيضاً . . والفرس قد هزموا هزيمة كبرى . . وأبو لؤلؤة فارسى . . ومعنى الرواية أن هناك مؤامرة بين الفرس واليهود لقتل عمر بن الخطاب . . وخاصة أن الهرمزان . . وهو فارسى أيضاً . . بل كان قائداً فارسياً مرموقاً . . وأسر . . وادعى الإسلام . . وعاش فى المدينة . . وكان أبو لؤلؤة هذا على اتصال به . . هذه الرواية تقول أنه قبل مقتل الخليفة بثلاثة أيام قال كعب الأحبار لعمر إنك سوف تقتل . . لأن هذا موجود فى التوراة . . وأن مقتلك سيكون بعد ثلاثة أيام . . ولكن عمر لم يأبه له بل قال له :

- وما يدريك ؟

قال كعب الأحبار :

- أجده فى كتاب اللّه التوراة . .

- واللّه إنك لتجد عمر بن الخطاب فى التوراة . .

- اللهم لا . . ولكن أجد صفتك ومخيلتك . . وأنه قد فنى أجلك . . ومر يوم وجاء كعب وقال له : مضى يوم وبقى يومان . .

وفى اليوم الثانى قال له : لقد ذهب يومان وبقى لك يوم وليلة وهى لك إلى صبحها . .

ولو كانت هذه الرواية صحيحة . . فمعنى هذا أنه كان هناك تآمر . . وأن كعب الأحبار هذا يريد أن يعطى لنفسه أهمية بالإيحاء بأن التوراة بها هذه الحقائق التى تنبئ عما تأتى به الأيام . . وأنه بذلك يخفى هذه المؤمراة التى دبرت لقتل قاهر الفرس والروم . . والتوراة بالطبع ليس فيها شئ من هذا القبيل . .

لقد جاء عمر لصلاة الفجر . . وما كادت تستوى الصفوف . . ويزمع عمر الدخول فى الصلاة حتى قدم أبو لؤلؤة المجوسى وطعنه بخنجر وأخذ يطعن المسلمين الذين يحاولون الإمساك به . . إلى أن استطاع أحد المصلين أن يلفه بثوب ليشل حركته . . فطعن المجوسى نفسه وقتل . .

وأمر عــمر بأن يصلى عــبدالرحمن بن عــوف بالناس . . وصلى بالفعل صلاة الصبح ببعض قصار السور . .

وتساءل عمــر عن قاتله . . وحمد اللّٰه أن الذى قــتله ليس مؤمناً وسجد للّٰه سجدة . .

وحُمل عمر العظيم والدماء تنزف منه إلى منزله . . وكان همه أن يسأل أصحابه : لماذا حدث الذى حدث؟ وهل هو اتفاق بين المسلمين على قتله . .

وسأل علىٍّ بن أبــى طالب فقال: يا علىّ أعن مــلأ منكم ورضى كان هذا؟

فرد علىّ: ما كان على ملأمنا ولا رضا . . ولوددنا أن اللّٰه زاد من أعمارنا فى عمرك؟

كان عبداللّٰه بن عمر يضع رأس أبيه فى حجره فقال له عمر :

- ضع خدى على الأرض .

وعندما رفض عبداللّٰه صاح فيه عمر :

- ضع خدى على الأرض لا أم لك . .

وعندما وضع خده فى الأرض قال :

- الويل لعمر ولأم عمر . . إن لم يغفر اللّٰه لعمر . . ! !

وقـصـده الناس فى داره للزيارة وطلب منه المهـاجـرون أن يعين خليفة بعده حتى لا تحدث فـتنة بين صفوف المسلمين . . ولكن عمر كان رده :

- واللَّه لا أحملكم حيـاً وميتاً وإن استخلفت فقـد استخلف من هو خير منى . . وإن أدع فقد ترك من هو خير منى (النبى وأبو بكر) .

وجاءوا بطبيب . . ولكن دون جدوى . . فطلب عمر أن يستأذن عائشـة ليدفن مع صاحبـيه النبى عليه الصـلاة والسلام وأبى بكر . . وعندما ذهب عبداللَّه بن عمر إليها رحبت وقالت له :

- نعم وكرامة . . يا بنى أبلغ سلامى وقل : لا تدع أمة محمد بلا راع استخلف . . وأخبر عبداللَّه والده برغبة عائشة .

فقال عمر : ومن تأمرنى أن أستخلف . . لو أدركت أبا عبيدة ابن الجراح باقياً اسـتخلفته فإذا قدمت على ربى فـسألنى وقال لى : من وليت على أمـة محـمد؟ قلت : يا رب . . سـمعت عـبدك ونبـيك يقول : لكل أمة أمين . . وأمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح . . ولو كان سـالم مولى أبى حذيفـة حياً استـخلفته فـإن سألنى ربى قلت : سمعت نبيك يقول أن سالماً شديد الحب فى اللَّه . .

وهنا اقترح أحدهم أن يولى عبداللَه بن عمر خليفة للمسلمين . .

فقـال عمـر : قاتـلك اللَّه . . واللَّه ما أردت له بهـذا . . ويحك

كيف استخلف رجلاً عجز عن طلاق امرأته .. لا أرب لنا فى أموركم.. وما حمدتها فارغب فيها لأحد من أهل بيتى إن كان خيراً فقد أصبنا منه .. وإن كان شراً فشرعنا إلى اللّه .. حسب آل عمر أن يحـاسب منهم رجل واحـد .. ويسأل عن أمر أمة محمد ﷺ أما وقد أجهدت نفسى وحرمت أهلى فإن نجوت كفافا لا وزر ولا أجر أنى لسعيد..

ثم أمر أن يكون أمر الخلافة شورى بين ستة من أصحاب النبى عليه الصلاة والسلام : علىٍّ، وعثمان، وعبدالرحمن بن عوف، وسعد بن أبى وقاص، والزبير بن العوام، وطلحة ابن عبيد اللّه، وأن يكون لابنه عبداللّه رأى على ألا يكون واحداً من المرشحين للخلافة.. على أن ينتهوا من ذلك فى خلال ثلاثة أيام..

وهكذا أوشكت حياة هذه الشخصية العظيمة على الغروب بعد أن أضاءت الدنيا .. ورسمت طريقاً للعزة والكرامة تاركاً أعظم قدوة وأعظم مثل .. ومن منا يمكن أن نجد صورته بكل هذه الصورة التى تتميز بالواقع والتواضع والعفة .. إنه يقول لابنه:

- اقتصد فى كفنى فإنه وإن كان لى من عند اللّه خير أبدلنى ما هو خير منه .. وإن كنت على غير ذلك سلبنى فسرع سلبى .. واقتصدوا فى حفرتى .. فإن كان لى عند اللّه خير أوسع لى فيها مد بصرى .. وإن كنت على غير ذلك ضيقها على حتى تختلف أضلاعى ..

ولاتخرج معى امرأة . . ولا تذكرونى بما ليس فى . . فإن اللّه أعلم بى . . فإذا خرجتم فاسرعوا فى المشى فإنه إن كان لى عند اللّه خير قدمتمونى إلى ما هو خير لى . . وإن كنت على غير ذلك ألقيتم عن رقابكم شراً تحملونه!!

لقد طُعن أمير المؤمنين فى يوم الأربعاء (٢٣هـ) واختلف الرواة . . قالوا إنه مات فى اليوم التالى . . وقالوا أنه مات بعد ثلاثة أيام . . وكانت وصيته لابنه عبداللّه وهو فى لحظات الفراق:

- يا بنى عليك بخصال الإيمان . . قال ما هى يا أباه؟

فقال له : الصوم فى شدة أيام الصيف . . وقتل الأعداء بالسيف والصبر على المصيبة . . وإسباغ الوضوء فى اليوم الشاق . . وتعجيل الصلاة يوم العتم . . وترك ردغة الخبال . . قال: وما ردغة الخبال . . قال : شرب الخمر . . وقد اختلف الرواة فى سن الخليفة عندما وافا الأجل المحتوم . . هل ثلاثة وستون أم سبعة وخمسون عاماً . .

لقد جهزه أعلام الصحابة وحمله إلى القبر علىٌّ، وعثمان، وسعد، والزبير، وعبدالرحمن بن عوف . . ونزلوا إلى القبر . . وعندما خرجوا من القبر قال ابن أبى طالب بعد أن واروا أمير المؤمنين التراب:

- رحم الله ابن الخطاب . . لقد ذهب بخيرها . . ونجا من شرها . .

وودع الحياة إنسان عاش حياته لخدمة الحياة وترك على التاريخ بصمات لا تمحى . . وكون للإسلام أول إمبراطورية قوية الجانب مهيبة السلطان . . زلزلت ملك كسرى وقيصر . . وطوت ملكهما فى فترة زمنية بسيطة . . وكان الرجل الذى ورث كل هذا الملك . . يمشى فى الأسواق . . ليس بينه وبين الناس حجاب ولا حراس . . الأمر شورى بين الناس وهو كواحد منهم . . يبكى جزعاً وخوفاً من اللَّه إذا ظن أنه ظلم أحداً من الناس ولو ظلماً يسيراً . . وعلى وجهه خطان أسمران من كثرة البكاء خشية من اللَّه . . لقد ترك ذكراً عريضاً ممدوداً . . خالداً على مر العصور . . وانتهت حياته . . والعدل ينشر جناحيه فى كل مكان . . والرخاء والاستقرار سمة من سمات المجتمع . . وكان عمر يخشى فى ساعاته الأخيرة أن يكون أحداً من المسلمين هو الذى قتله . . فلما عرف أنه المجوسى قال:

- الحمد للَّه الذى لم يجعل قاتلى يحاجنى عند اللَّه بسجدة يسجدها له.

وأخذ يردد قوله سبحانه وتعالى: ﴿ **وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا** ﴾[**الأحزاب** : ٣٨].

لقد رضى عمر بقدر اللَّه.

ودفن بجانب سيد البشر محمد رسول الله ﷺ وصاحبه الصديق أبى بكر . .

مات . . بعد أن ترك خلفه تراثاً حضارياً . . سيظل يذكر كلمات مرت على الإنسانية الأيام والسنوات . . تراثاً . . لا يمكن أن تسدل عليه الأيام ستار النسيان . .

رضى اللّه عن عمر . .

فقد كان مناراً متألقاً . . يهدى الحيارى فى ظلام الوجود . . ويضىء للناس طريق الحياة . . ويزيل ظلام التخلف والجمود من طريقهم . . أليس طريق عمر هو نفس طريق النبى عليه الصلاة والسلام . . الذى أرسل للناس كافة . .

رحمه اللّه . . فقد كان شخصية نادرة أتعب من جاء من بعده . . على حد تعبير الإمام علىٍّ رضى اللّه عنه . .

* * *

المراجع

- إحياء علوم الدين للغزالى .
- أخبار عمر لعلى الطنطاوى وناجى الطنطاوى .
- إسلاميات : خالد محمد خالد .
- أعلام النبوة للماوردى .
- الأعلام للزركلى .
- بلوغ الأرب للألوسى .
- تاريخ الطبرى .
- تفسير الخازن .
- تفسير القرطبى .
- حسن المحاضرة للسيوطى .
- خاتم النبيين الشيخ محمد أبو زهرة .
- سراج الملوك للطرطوشى .
- السيرة النبوية لابن هشام .
- شرح نهج البلاغة لابن أبى حديد .
- الشيخان الدكتور طه حسين .

- صبح الأعشى للقلقشندى .
- صحيح البخارى .
- صحيح مسلم .
- عبقرية عمر للعقاد .
- الفاروق عمر لمحمد حسين هيكل .
- الفتوحات العربية الكبرى : جون باجرت جلوب .

ترجمة وتعليق خيرى حماد .

- محمد والذين معه . . لعبد الحميد جودة السحار .
- الملل والنحل للشهرستانى .

محتويات الكتاب

رقــم الايــداع :
٩٧ / ١٥٠٦٦
الترقيم الدولى :
977 - 294 - 046-9

مطــابـع آمــــون
٤ الفيروز من ش إسماعيل أباظة
لاظوغلى - القاهرة
تليفون : ٧٩٤٤٥١٧ - ٧٩٤٤٣٥٦